كريم كطافة

حمار
وثلاث جمهوريات
(رواية)

ربما أنا أعرف أفضل من الجميع لماذا يضحك الإنسان وحده.
فهو الوحيد الذي يتألم من الأعماق، لدرجة جعلته مضطراً
إلى اختراع الضحك. أن أكثر الحيوانات تعاسة واكتئاب
هي في الحقيقة أكثرها مرحاً..
الفيلسوف الألماني (فريدريك نيتشة)

هامش رقم (1)
تشكيل جماعة

دفعاً لأي التباس ودون الدخول في حواشي وزخارف بلاغية، سأتحدث عن جماعة صغيرة. اختارت لنفسها نصرة الحمير، هدفاً لوجودها في بحر الأحزاب والتجمعات. وعلى خلاف جميع الأحزاب والتجمعات، التي تُرجِع أمر انبثاقها إلى حتميات تاريخية، تأخذ منها في العادة صفحة أو اثنتين في نظمها الداخلية وبرامجها، كانت الصدفة وراء أمر انبثاق جماعتنا. رغم أن الصدفة ذاتها، بشحمها وعظمها، لم تكن يوماً مقطوعة الجذور، هناك دائماً مقدمات وهواجس توجدها، قد لا تكون مرئية أو محسوساً بها، لكنها موجودة.

ولدت الفكرة على أثر نكتة رواها أحدنا وكنا خمسة أصدقاء في سهرة كأس. قال فيها:

– كان حمار يمشي في سوق مزدحم بكل شيء، جلب انتباهه مشهد خروف، يقف الجزار على رأسه ويهم بذبحه. توقف الحمار أمام المشهد وانتابه على الفور شعور بالألم والأسى لحال الخروف. تطلع الخروف إلى الحمار وصار يضحك. الخروف المهدد بالذبح المؤكد يضحك والحمار الناجي يتألم. كان المشهد محيراً، أربك الحمار وأدخله رغماً عنه في الحمرنة. قرر أن يفعل شيئاً. بينما الجزار يهم بالذبح، نهق الحمار بصوته العريض الحاد، نهقة أسقطت سكين الجزار من يده، في وسط المسافة الفاصلة بين النية

والفعل. ثم اقتحم المشهد، رافساً هذا وعاضاً ذاك، حتى فرق الجمع الملتم حول رأس الخروف بنجاح باهر. وكان أول الهاربين الجزار ذاته، إذ لحقته رفسة أسقطته أرضاً ثم ولى هارباً. سأل الحمار الخروف بعد أن فرغت الساحة:

– ألا تقل لي أيها المسكين لماذا كنت تضحك..!؟

رفع الخروف رأسه إلى الحمار وأسنانه لم تزل تضحك، وأجاب:

– أنا كنت سعيداً. ولما رأيتك صرت أضحك!!

صار الحمار يهمهم مع نفسه ولسان حاله يسأل: ماذا بوسع الحمير أن تفعل لغباء و(طيحان حظ) الخرفان..؟ خرج من الهمهمة، إنما ما زال كأنه يحدث نفسه:

– هذا ليس بالغباء العادي.. إنه يستدعي الصفنة!

عاجله الخروف:

– لا تصفن يا غبي! كنت سعيداً لأني سأموت خروفاً ولم أعش حماراً!

كانت نكتة، أو هكذا أرادها راويها. ضحكنا للمفارقة الحمارية – الخروفية بأطوال متفاوتة من الـ(ها ها ها ها)، باستثناء السيد "نصار"، الذي استبدل الضحك المفترض بصفنة في غير محلها. كان رد فعله الأول التقطيب والعبوس بدلاً من الضحك. ثم دخل في الصفنة. قيلت بغيابه الكثير من النكات التي لم يسمعها. خرج أخيراً من صفنته بحركات رأسية بندولية، أدخل إصبعه في أذنه اليمنى ثم أدخل الثاني في اليسرى، كمن يبحث فيهما عن شيء غير متيقن

من وجوده. في العادة، السيد "نصار" معروف لنا بقلة الحديث، حتى في جلسات الكأس. هو مستمع أكثر منه متحدث. على الرغم من أن حديثه على ندرته، مفعم بسرعة البديهة وحلاوة وقوة وذكاء المقاصد الخفية. لا ينقصه حذق الكلام أو القدرة على توليف وإلصاق النكات بمن يريد. لكن، تبقى ميزة أحاديثه أو تدخلاته أنها قصيرة، خفيفة، طازجة، لا يسرف في الكلام، أو لنقل؛ لا يوجد عنده شيء أسمه كلام من أجل الكلام. هذه المرة وبعد خروجه من صفنته الطويلة، بدا مصراً على مصادرة الجلسة وتحويل مسارها إلى فلسفة وأفكار وخلفيات وما ورائيات. باختصار، بدا لنا ثرثاراً على غير عادته، حتى أنه قد اطار السكر من رؤوسنا. هكذا، بدلاً من الانغماس بأثيرية أجواء الخمرة وما تثيره في الجسد من تخفف وفي الرأس من أخيلة حرة، أدخلنا الأخ في متاهات وجهامة وعبوس الفلسفة والفكر والنظريات وقال الراوي وأردف الواوي. في النهاية، جرجرنا جميعاً إلى حيث يريد. إلى حيث المشروع الذي سأحدثكم عنه.

بدأ مشروعه بسؤال كرره كثيراً:

– من كان الغبي في مشهد الخروف والحمار..؟

وإذ لم يجبه أحدنا مباشرة، صار يكرره في كل شاردة وواردة. حتى أجابه السيد "غفار" أخيراً وقد نفد صبره من نية السيد "نصار" على كركبة السهرة:

– يا أخي أنا الغبي، لأني أنا من رويت تلك النكتة البائسة! أرجوك دعنا من هذه السيرة..!

رد السيد (نصار) بهدوء من انتهى تواً من إخراج ذلك الشيء الذي كان يبحث عنه في إذنيه:

– كونك غبياً، هذا أعرفه!

ضحكنا جميعاً، بما فينا السيد "غفار". رفع السيد "زهار" نخب الحمار هذه المرة. وكانت تلك هي البداية التي انحرف بها مسار سهرتنا. رفع كل منا كأسه في الهواء إلى الأعلى وكأن الحمار صاحب النخب موجود فوق رؤوسنا، في مكان ما من الغرفة. شربنا نخبه. لكن السيد "نصار" عاد إلى سؤاله (السقراطي) من جديد. تواصلت السهرة، لكنها أخذت تدريجياً وجهة حمارية، انتهت أخيراً باتفاق مبدئي على تشكيل الجماعة.

ألم أقل لكم إنها الصدفة..؟ أعتقد البعض منا في البدء وأنا منهم، أن ما تم التوصل إليه في تلك الجلسة التي امتدت حتى مطلع الفجر، لم يكن سوى أضغاث من شوارد أحاديث الخمرة. يظل السِكر في ألذ تجلياته، حالة إبحار من نوع عميق، في قضايا ومشاكل لا تتجرأ أن تقلها أو تعلن عنها وأنت صاح. تجد نفسك بعد كأس أو أثنين من ذلك السائل الفردوسي العجيب، قد تخففت من عوائق ومطبات وحواجز. بل تشعر بحالة من السمو، تسمو بعقلك وجسدك في عوالم من الأثير. لا تصلها في عالمك الثقيل،

القاسي، المتعجرف، المنشد إلى جاذبيات كثيرة غير الجاذبية الأرضية. وللسِكر مفاعيل وآثار أُخرى، تترسب في طبقات خلفية من الذاكرة، على شكل أخيلة ورغبات، تنتمي إلى ماضٍ قد يُنسى تماماً، لكنه أيضاً قد يُستعاد بعد أن يكون قد تواشج مع نسيج من الخيال الحر.

كانت حيوية وحماس السيد "نصار" وما جلبه من قصص وأخبار وأفكار. ثم تواصله في ما لحق من أيام، مع كل واحد منا على انفراد وفي ذات الموضوع، جعلنا جميعاً نقترب رويداً من فكرة الحاجة إلى نصرة هذا الحيوان المظلوم. تأكدنا أن الحمار لم يكن في أي يوم حيواناً غبياً، وما افتراءات الإنسان عليه، سوى أكاذيب يطلقها ويصدقها هو نفسه. كذلك وجدنا أنفسنا نخوض في أمر إمكانية استخلاص فلسفة خاصة، مستنبطة من أخلاق وسلوك الحمير. حصيلة نقدمها لأشباهنا من السائرين على قائمتين، عسى أن يصلحوا بها ما فسد من أخلاقهم وقيمهم. لقد لحق بالبشر الكثير من الإذلال والإهانات والاعتداءات، التي جعلتهم يوماً بعد آخر أقل قيمة وأكثر استعداداً لتقبل الظلم وتسليم الرقاب لكل من هب ودب. تماماً على شاكلة ذلك الخروف الذي بدا سعيداً بخروفيته. في جميع الحالات ستكون الفلسفة الجديدة، أفضل بكثير مما هو معروض من فلسفات وعقائد واعتقادات، جميعها برهنت على فشلها وكونها مولدات فرقة ودمار وخراب للبشر وللطبيعة.

في سياق الجلسات التي عقدناها، خصيصاً، لوضع الفكرة موضع التطبيق، اكتشفنا؛ بعد استعراضنا لجملة من الشروط، نضعها لمن ينضم إلى جماعتنا في المستقبل، إن لجماعتنا الكثير من المرشحين. تم تصنيفهم في قائمتين؛ الأولى ضمت أفراداً تقرر التوجه إليهم فوراً وزجهم في عملنا، لحيازتهم على كافة الشروط المطلوبة والثانية ضمت ما أطلقنا عليه مسمى (أعضاء قائمة الانتظار). اعتبرنا كل منهم عضو في جماعتنا وإن لم ينتم. إذ وجدنا لكل منهم عذراً يمنعه من الانضمام عملياً إلى مشروعنا.

كان من بين أسماء القائمة الثانية، الكثير من المشاهير والأعلام وفي بلدان مختلفة. كلهم يتمتعون بذكاء حميري نافذ ويمارسون الصفنة والحمرنة على أصولهما ولديهم الصبر والجلد على طريقة الحمير تماماً. منهم سياسيون كبار ذاع صيتهم على جانبي الصراع الحكومي– المعارض ومنهم شعراء فطاحل وكتاب رواية وفنانون أعلام في التمثيل، الرسم، النحت، الموسيقى، الغناء، الرقص، مضافاً لهم نقاد تلك الأصناف الإبداعية.

وعلى ذكر الرقص، اقترح السيد "زهار" إخراج جنس الراقصات تحديداً من قائمة الانتظار، زاعماً؛ أنه لم يعرف أو يسمع عن راقصة غير ثرثارة. والثرثرة تحرم الكائن السوي من نعمة الصفنة. قوبل اقتراحه بالرفض الإجماعي، شممنا منه رائحة تمييز من نوع ما. نحن ضد التمييز بكل أشكاله.

يكفي جماعتنا فخراً، أن أشهر فنان تشكيلي في منطقتنا، أعلن في واحدة من المقابلات الفضائية وأمام الملأ؛ إنه "يعشق الصفنة ". لم يقل التأمل، الاستغراق، التركيز أو أي مسمى آخر مزيف، بل سماها باسمها –الصفنة–، ثم أضاف: "استقي أفكار لوحاتي ومشاريعي من تلك الصفنات، التي تطول في بعض الأحيان، حتى غدت –الصفنة– عندي مقياساً لمدى الجهد الذي أبذله في لوحة من اللوحات.. مثلاً؛ والكلام مازال لذلك الفنان التشكيلي؛ لوحة (العشاء الرئاسي الأخير) أخذت مني 12 صفنة! بينما أصعب لوحاتي لم تأخذ مني أكثر من ست أو سبع صفنات..!" الأمر الذي جعل المذيعة الفضائية الجميلة التي قدمته، وربما لخواء معدتها هي في ذلك الوقت المتأخر من الليل، أن تهمل كل لوحاته وتتشبث بـ(العشاء الرئاسي الأخير). اللوحة الشهيرة، التي رسمها لأب الرئيس الحالي لجمهوريته قبل وفاته.

هذا، ناهيك عن أن سواد الروائيين وكتاب القصة القصيرة والشعراء، الفطاحل منهم والكتاكيت، هم في الواقع كائنات صفنوية. لا تأتيهم شياطين الإلهام إلا بعد صفنات تطول وتقصر، حسب حنكة وحرفية المبدع في استدراج شيطانه. أما على صعيد الحمرنة، فهم في غالبيتهم أصوليون متطرفون فيها، حصل كثيراً أن تحمرن ناقدان أو كاتبان أو شاعران على نص، أحدهما يريده على بطنه والآخر يفضله على ظهره. حمرنة تطول وتتشظى في هذه الصحيفة أو تلك ولن يخرجهما منها سوى طرف ثالث حاذق وعليم في دروب النقد

ومنزلقاته ومتسلحاً ببيت "كعب بن زهير" الشهير في صاحبته "سعاد":

هيفاءُ مقبلةً عَجْزَاءُ مدبرةً لا يُشتكى قِصَرٌ منها ولا طول

كذلك وضعنا في القائمة رئيس إحدى الدول. لا يسعني ذكر أسم دولته في هذا الحيز، لأنه طويل وعريض وهو بذاته قصة. شاع عن ذلك الرئيس إنه يمارس الحمرنة والصفنة بشكل متلازم، بل هو يقود دولته ويصرف شؤونها المختلفة عبر هاتين الميزتين الأصيلتين في الحمار. قيل: إذ يزعل على وزرائه وموظفي دولته، يعتكف في مكتبه ويرفض التوقيع على أية ورقة تقدم له. لا يرد على أية مكالمة، لا يسمح لأحد بمقابلته، لا يتكلم حتى مع زوجته وأقرب مرافقيه. وما أن يستنفد تلك الحمرنة لأقصى مداها، حتى يأخذ بعضه في غفلة من الجميع ويتوجه إلى الصحراء. هناك وفي أماكن مختلفة ومتباعدة منها، جهزوا له مقرات رئاسية، على شكل خيم مجهزة بكل مستلزماته الصفنوية وجاهزة لاستقباله في كل الأوقات، بحاشيتها الكاملة من طباخين ونفاخين وقهوجية وفرق مكافحة الذباب مع طوق أمني يمنع الاقتراب من المنطقة لمسافة 10كم دائري. يختار الرئيس واحدة منها، لا يعرف بها سوى عدد محدود من المرافقات والحارسات اللواتي يصطحبهن معه. بالمناسبة، هذا الرئيس أفحم كل حكماء وفقهاء عصره والعصور التي سبقته، بإثباته العملي، أن المرأة ليست ضعيفة أو خؤون أو شيطان غدار كما يُشاع، بل هي قوية قادرة على حماية رئيس دولة ومخلصة ووفية

أوفى من كلب لو أخلص لها الرجل. في تلك الخيم المكيفة بهواء الصحراء، لا أحد يجرؤ على تعكير سكينته الصفنوية، المحروسة بالإناث المدججات بالسلاح والإخلاص. تبين لاحقاً أن تلك الصفنات الصحراوية لم تكن بلا فائدة، لأنه خرج على العالم بنظرية جديدة، تبز ما هو متوافر من ألوان النظريات الحمراء والصفراء والبيضاء والسوداء. أعطاها ذلك اللون المفقود في التنظير، دعاها بالخضراء. اللون الأخضر كما تعرفون هو اللون المفضل ليس للحمير فقط بل لكافة الكائنات النباتي منها واللحوم.

كذلك كان في قائمتنا اسم ممثلة عالمية متقاعدة. اشتهرت تلك الفنانة في شبابها بجمالها الآسر وفتنتها المدوخة، متربعة لسنين طويلة على عرش مشاهير فن السينما. لقد سلبت تلك التحفة الفنية ألباب وعقول الكبار والصغار في زمنها، حتى اعتبرتها حكومة بلدها (ثروة قومية). نعم، ثروة تُوجِب رعايتها وحمايتها كأي ثروة يعود نفعها على الجميع. اهتمت فنانتنا في سنوات تقاعدها بما نهتم به نحن الآن. أعلنت أمام العالم وبفمها الشهواني المدوخ: إن الحمير خط أحمر لأعداء ومخربي البيئة!! الأمر الذي جعل شوارب الكثير من الرؤساء والملوك ترتجف، على الأخص الرؤساء والملوك المبتلون بسياسات إبادة الحمير. لقد قدمت تلك السيدة الفاضلة وما زالت تقدم خدمات وإنجازات مهمة في حقل اهتمامنا. لذا، قررنا أن نتصل بها فوراً، رغم أنها موضوعة على (قائمة

الانتظار). لكن اللقاء بها كان ضرورياً لتنفيذ أول مشروع تطبيقي لنا.

لقد وقفنا على أخبار مقلقة وبعضها موثق بالصورة والصوت، عن حملات رسمية، لإبادة جماعية، تُمارس بحق الحمير في ثلاث جمهوريات على الأقل. كنا بحاجة إلى من يسهل أمر دخولنا وتجولنا في تلك الجمهوريات، دون أن يتحسس الواحد منا كل ساعة رأسه وهل ما زال محمولاً على كتفيه. كانت الخطورة تكمن في كوننا نحن الخمسة، محسوبين لونياً على تلك الجمهوريات الثلاث، رغم أننا اعتنقنا منذ زمن بعيد نوعاً خاصاً من المواطنة، دفعنا ثمنه تشرداً ونفياً إلى خارج حدود كل الجمهوريات والملكيات في تلك البقاع، ليستقر بنا مدار التشرد والنفي، لاستيطان بلاد بعيدة عن كل المنطقة الموبوءة بحروب الإبادة.

– أعد القارئ من الآن؛ سوف لن أتطرق إلى سيرتنا الشخصية، باستثناء ما يتعلق منها بالمشروع–

أقول، كنا بحاجة إلى غطاء أممي، يحمي تواجدنا هناك لمتابعة مهمتنا في منع أو على الأقل فضح جرائم الإبادة الجماعية بحق الحمير. لم نجد أفضل من توصية صغيرة، تخطها تلك الجميلة بأناملها الساحرة، إلى الأمين العام الأممي لحماية الحياة البرية. كنا واثقين أن لا أحد من الرجال شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً، باستطاعته حرمان نفسه من ملامسة سحر أنامل تلك الحسناء وإن كان السحر

مكتوباً لأجل حمار. وكانت لنا في المهمة مآرباً أخرى أيضاً، سآتي عليها لاحقاً في هذا الكتيب.

في الحقيقة، كانت كل الترشيحات المقترحة، نماذجاً رائعة امتازت بالذكاء والفطنة والإنجازات. لم يترك السيد "نصار"، في غمرة عمله التوعوي، نموذجاً حميرياً لم يستذكره ويذكرنا به، سواء كان ماشياً على أربعة أو على اثنتين. حتى جعلنا نتبنى استنتاجاً يقول؛ إن وجود جماعتنا واستمرارها سيحقق مصلحة عليا للإنسانية..!!

من الحمِر التي استذكرناها وقررنا اتخاذها نماذجاً للتوعية في قادم الأيام، ذلك الحمار الشهم الذي أنقذ السيد المسيح وأمه العذراء بذكائه الفذ. لقد نفذ بهما بين الجبال والأحراش من حدود مدينة (الجليل) المسورة بأعدائهم إلى الصحراء ومن هناك إلى (مصر). والحمار "يعفور" الذي قيل عنه إنه من سلالة ضمت سبعين حماراً كان هو آخرهم. كل أسلافه ركبهم أنبياء، ليكون هو خاتم السلالة لخاتم النبيين.. وقيل أنه تعرف على النبي وانتظره قبل أن يراه، بل كان يرفض أن يستحمره أحدهم من الذين حاولوا قبل النبي. ثم حمار القديس "توما" الذي كان يأخذ رأيه بكل صغيرة وكبيرة، وحمار جحا الغني عن التعريف. حتى وجدنا أنفسنا نلج باب الأدب مستعرضين أشهر الروايات التي كتبت عن الحمار، بدءاً من الرواية الشعرية (حماري وأنا) للأسباني "خوان رامون خيمينيث" التي تُرجمت حتى إلى لغة العميان على طريقة بريل، والتي نال عليها جائزة (نوبل) في الأدب عام 1956. فحمار الألماني "غونتر

ديبرون" الذي وُصف على لسان أحد النقاد؛ إنه ينتمي إلى أرقى حظائر تاريخ الفلسفة. ثم حمار التركي "عزيز نسين" الذي رموه في مشرحة الجثث، ليحول مشرحته إلى محاكمة شاملة للمجتمع التركي بكل أطيافه وألوانه.. وصولاً إلى الحمار الأدبي العربي حمار "توفيق الحكيم". كان (الحكيم) يلح كثيراً على عبارة (قال لي حماري..). رغم أن أحد الصحفيين المعاصرين، زعم مؤخراً؛ أنه التقى بحفيد حمار الحكيم، وهذا أخبره: أن المرحوم جده لم يقل للحكيم يوماً أي شيء!! لعل الأحوال في ذلك الزمان اختلطت على الحكيم ، حتى لم يعد يميز بين من يمشي على اثنتين ومن يمشي على أربعة.

لقد أفحمنا السيد "نصار" بثقافته الحمارية. حتى بدا لنا كأنه قد عزم على هذا المشروع منذ سنين طويلة. تبدى لنا أنه مشروع فريد في منطقتنا وضروري لرفعة واستقرار مجتمعات متخومة بأحزاب وجمعيات وجماعات، همها الوحيد مسح الأرض بخصومها الظاهرين والمستترين. يعتمدون القتل وسيلة لنشر الأفكار والعقائد ولا ندري ما نفع الأفكار والعقائد إذا هلك الإنسان.

جماعتنا لا تبحث عن خصوم. بل نظن؛ أن لا أحد بوسعه مخاصمتنا. لماذا سيخاصموننا..؟ هم يتقاتلون ويتنافحون باسم الوطن، القومية، الدين، المذهب، العقيدة، الطائفة..إلخ طيب، لهم كل ذلك. لهم الوطن بما حمل والدين بما نزل والقومية بما قامت لأجله والمذاهب بما ذهبت إليه والطوائف والأعراق بما ابتلت به..!!

كل هذا لن يهمنا، لسبب بسيط؛ أننا ندافع عن كائنات لا وطن لها ولا قومية ولا دين.. كل أرض هي أرضها وكل عشب وماء هو لها والحيوان أخ الحيوان وإن اختلفت الخرائط الجينية. ما نريده؛ خارج عن مدار الأوطان والأوكار والثروات والحكومات والانقلابات والأديان والعقائد والقوميات والأعراق المتناحرة والجينات المتنافرة.. أننا نريد نصرة الحمير.. هل يضر هذا أحداً..!!؟

أذكر أن السيد "نصار" قال وبملامح تشي أنه يريد لنا أن نشاركه مخاوفه وتنبؤاته المستقبلية:

– أنا افهم يا أصدقائي؛ أن مشروعنا قد يتسبب في البداية، بصدمة للساحة السياسية هناك –يقصد الجمهوريات الثلاث حيث تمارس سياسة الإبادة الجماعية للحمير– الساحة هناك ما زالت محرورة بالتعصب والقتل والإبادة، لكنه على المدى البعيد، سيكون نسمة رحمة ولمسة شفاء لتلك الرؤوس المتعبة، المشوشة، المنتهكة، التي تحاول التشبث بما تبقى من أمخاخ مهددة كذلك بالضمور.

رد عليه السيد "زهار" بقلق واضح:

– وما علاقتنا نحن بضمور الأمخاخ والنخاعات.. ما علاقتنا بالبشر أصلاً..!؟ لتضمر عقولهم، أمخاخهم، رؤوسهم، ليطحنوا عظام بعضهم، هذه مشاكل بشرية. يجب أن نحدد هدفنا بوضوح ومنذ الآن. إذا كنا سنخلط البشر مع الحمير أعلن منذ الآن استقالتي..!!

ترك اعتراض وتهديد السيد "زهار" بالاستقالة، الذي أطلقه بغضب واضح، بعض الارتباك في صفوفنا. غير أن السيد "نصار" تدارك الأمر، ووضح بابتسامة الواثق من قدرته على احتواء غضب الزميل:

– يا صديقي! ضمور مخ الإنسان جراء عدم الاستعمال، سيجلب كوارث على الحمير كذلك. لا تنس، لم تزل مصائر النوعين متداخلة مع بعض في تلك الأصقاع والبراري. أما فيما لو استرد البشر هناك عقولهم المصادرة تحت مسميات كثيرة، وأداموا أمخاخهم عبر عمليات التفكير، سيسهم ذلك في تجنيب الحمير، الكثير من سوء النية، المصاحب لسلوك البشر غير العقلاء.

لم يستسلم الزميل "زهار" بعد، رد وبذات القلق:

– يا جماعة صدقوني! إننا سنفشل في مسعانا، بل سينعكس فشلنا على مهمتنا الأصلية. أنا أرى أن البشر هناك قد تخلوا عن عقولهم بمحض إرادتهم. كل بضعة آلاف منهم، يؤجرون عقولهم لشيخ من شيوخ دينهم أو وجيه من وجهاء قبائلهم أو زعيم سياسي وبطريقة ال–(سرقفلية). غالباً ما تجد هناك من يفكر نيابة عن المجموع. اعتقد في هذه الحالة، لم يتبق لنا شيء نفعله.. ألا تتفقون معي..؟

كذلك السيد "نصار" لم يستسلم. أوضح وهو ما زال على ابتسامته الخفيفة التي تشيع الود في الحوار:

– أنا أفهم قلقك زميلنا العزيز وأفهم أن هناك من اختار اللاعقل. لأن الخيار الآخر الذي كان أمامه هو اللاحياة. كما ترى طرفي

المعادلة.. حياة بلا عقل أمام عقل بلا حياة. إذا كان الطرف الأول منها قابلاً للتعديل لاحقاً.. فالمؤكد أن الطرف الثاني ميئوس منه تماماً، حيث لا خيارات ولا تعديلات بعد الموت. أنا أجد في هذا الخيار بصيص من العقل.

لم يزل السيد "زهار" على عناده، لكن ملامح الغضب والتعصب التي تقمصت ملامحه قد تبددت قليلاً:

– افترض أني وافقت على هذا الاستنتاج، لكن، كيف نتواصل معهم باسم جمعية نصرة الحمير، وهم ما زالوا يوصمون كل من يخالفهم بـ(حمار).

تدخل السيد "غفار":

– هذا هو عملنا يا صديقي، علينا إزالة ذلك الالتباس التاريخي والتداخل الشاذ والمعقد بين الحمار والإنسان. لنكن متفائلين، أنا لا أتفق مع تهديدك بالاستقالة.

في الحقيقة، كاد ذلك الجدل الحامي أن يذهب بجهدنا أدراج الريح. إنما حنكة وشعور الزملاء بالمسؤولية ومنهم الزميل "زهار"، جعلنا نتغلب على تلك العقبة.

أقول؛ لم يكن ينقص السيد "نصار" كل ما له علاقة بالمشروع، إن كانت مراجع أو حوادث. كانت نكتة السيد "غفار" البريئة، هي الشرارة التي أججت الحريق الملتهب أصلاً. حتى أن السيد "غفار" والحال أخذ هذا المسار، دفعه حماس نصرة الحمير ولترطيب الجو،

الذي بدا غائماً بعد اعتراض الزميل "زهار"، لإطلاق نكتة ثانية صبت الماء من جديد في الطاحونة الحمارية:

– اسمعوا الحكاية التالية! كان هناك مهندس أراد رسم طريق يخرج من إحدى القرى باتجاه الجبل، ظل طيلة النهار يتنقل بأجهزته، محاولاً البحث عن ذلك المسار الذي تنطبق عليه مواصفاته الهندسية.. أقصر وأسهل.. دون أن يهتدي. وكان هناك فلاح عجوز يراقبه منذ بدء عمله. عند المساء وبعد أن تيقن الفلاح من ورطة المهندس مع الطريق، نزل إليه وحياه، ثم سأله:

– أراك في حيرة يا استاذ..!؟

أخبره المهندس أنه لم يجد بعد ذلك الطريق السهل والقصير. رد عليه الفلاح العجوز:

– عندي فكرة أنفع من أجهزتك هذه. إننا في حياتنا الفلاحية حين نريد أن نكتشف طريقاً سهلاً وقصيراً، نترك الحمار يسير أمامنا على مسافة ثم نتبعه.. والحمار يختار على الدوام أسهل وأقصر الطرق..!!

فهم المهندس الأمر على أنه سخرية منه، تلعثم وغضب وحاول أن يتذاكى، فسأل الفلاح:

– طيب، وإذا لم تجدوا حماراً ماذا تفعلون؟

أجابه الفلاح:

– عندها، ليس أمامنا سوى البحث عن مهندس!

ضحك السيد "نصار" طويلاً، بل أنه سكر من الضحك. واضح أن النكتة الثانية قد دغدغت جهوده الحثيثة التي بدأها في السهرة، لتكوين رأي موحد حول مشروعه.

تكلم السيد "زهار" في الموضوع كذلك:

– هناك حقائق كثيرة على ذكاء الحمار وعن شهامته كذلك. قيل أنه يستطيع معرفة المعاقين عقلياً أو جسدياً من البشر، ليتعامل معهم بحرص دون أن يؤذيهم. كما أنه يتمتع بغريزة تحببه بالأطفال، هو صديق حميم للأطفال، لا يرد على الطفل بالرفس أو العض مهما كان غاضباً منه، لذلك لا قلق من تركه بجوار الأطفال، سوف يداعبهم ويحميهم من أي أذى. ربما لهذا الأمر علاقة بطبيعة الصبر والتحمل التي هو عليها. وهذه الحقائق في الغالب يعرفها الفلاحون، لأنهم خبروها عن قرب. لكن أغربها، تبقى تلك الحكاية التي تقول أنه حين يأكل، لا يوفر أية عشبة في طريقه، باستثناء واحدة يظل يأباها ولا يقربها.. تلك هي عشبة التبغ! هذا يعني أن الحمار وبالفطرة هو ضد التدخين ولا يحتاج إلى جمعيات ومحاضرات وأطنان الأدوية والعلكة المشبعة بالنيكوتين ليكف عن هذا الداء اللئيم.

اتفقنا مع الزميل "زهار" بهز رؤوسنا بشكل عمودي على معلوماته. بدا لنا أكثر تحمساً من السيد "نصار" صاحب المشروع. لكن، بعد أن فرغ من حديثه الذي رماه رمية واحدة وكأنه كان ينغل في صدره، شرب ما تبقى في كأسه من خمرة، ثم سحب سيكارة من

العلبة الموضوعة أمامه وأشعلها!! هكذا كأنه لم يقل شيئاً للتو. ضحكنا جميعاً ضحكاً صاخباً. تنبه لوقعته واستدرك:

– يا جماعة! أرجوكم.. أنا ما زلت بشراً.. لا تنسوا هذا!

علقت أنا مثنياً على ما قاله السيد "زهار":

– معك حق، ما زلنا بشراً. لكن المشكلة أن تشويه سمعة وتاريخ الحمير، لم يأت فقط من الثقافة الشعبية، بل حتى الأديان ساهمت فيه. كل الأديان تقريباً، تناولته وكأنه مخلوق استثنائي ليس من مخلوقات الله. مثلاً، الديانة اليهودية تحسب الحمار على حزب الشيطان، وهي تنطلق من حكاية تقول أن (نوحاً) لما دخل السفينة وأراد إدخال أصناف الحيوانات، تمنَّع الحمار بالدخول، لأن إبليس كان ماسكاً بذنبه، وقال آخرون بل كان في جوفه، فلما قال للحمار: أدخل يا ملعون! ودخل الحمار، دخل معه إبليس كذلك. فلما رأى (نوح) بعد ذلك إبليساً في السفينة مع الناجين، سأله: من أدخلك السفينة يا ملعون؟ أجابه إبليس: أنت أمرتني، ألم تقل أدخل يا ملعون، لم يكن حينها ملعوناً غيري. منذ ذلك اليوم وحسب الأسطورة الحمار هو الوحيد الذي يرى الجن والشياطين دون الإنسان. وهناك آية في القرآن تقول: إن أنكر الأصوات لهو صوت الحمير. ولما أراد الله تبشيع اليهود وأسفارهم قال: كمثل الحمار يحمل أسفاراً، ناهيك عن مئات الأحاديث الصحيحة والضعيفة كلها تصب اللعنات على الحمير. والديانة الهندوسية والزرادشتية تشترك بإعطاء ملامح الحمار للآلهة التي تنتمي للشر وتولده. مأساة

الحمار أنها لمأساة حقيقية. ستكون مهمتنا صعبة يا أصدقائي. اقترح أن...

توقفت وأخذت انظر في عيون الجالسين، لأستشف وقع ما سأقوله. كنت أحاول القول: لنترك الموضوع ونعود إلى خمرتنا ومرحنا، وكفانا الله عناء المحاولة. إنما السيد "نصار" والحديث أخذ هذا المنحى غير المتفائل، كان لي بالمرصاد، لم يمهلني هذه المرة كما أمهل السيد "زهار" ودعاه يقول كل ما لديه. قال:

– بالنسبة لليهود، لا أدري ما الذي جعلهم يظنون بشيطانية الحمار، رغم وداعته الظاهرة وخدمته الجليلة للبشر، أما ما يخص القرآن، أنا أرى العكس تماماً، أرى أن القرآن قد أنصف الحمار وأقر بذكائه. في ذات السورة التي أشار لها الزميل، ذكر: أن اليهود قوم يعلمون ولا يعملون كمثل حمار يحمل أسفاراً...

ثم ألتفت موجهاً حديثه لي:

– إذا اقتبست لا تجتزأ! لا تصير كمثل ذلك الذي قال "لم يقل ربك ويلٌ للسكارى، بل قال ويلٌ للمصلين.." المعنى كما هو واضح لا يخص الغباء، بل يخص من يعلم ولا يعمل، ومن يعلم ليس بغبي. أراد ربك القول هنا عدم انتفاع اليهود من علمهم، معلوم أن اليهود أذكياء، لكن الله يرى أنهم لم ينتفعوا بعلمهم، بدليل عدم إسلامهم، هذا حسب منطق القرآن. أما قضية الصوت، أعتقد أنها تُقَيم على خلفية الذوق، وهل خوار البقرة جميل..؟ على أية حال نترك لزميلنا

(عمار) مهمة فك شفرة الصوت، لعله يستطيع أن يعرفنا على علاقة صوت الحمار بالأصوات.

كان للزميل "عمار" صوتاً آسراً، كثيرا ما يتحف سهراتنا بغنائه الجميل. لكنه لم يشارك بشيء طيلة تلك السهرة، خصوصاً بعد أن أخذت ذلك المنحى الحماري. ولما كان هو المقصود بحديث السيد "نصار"، اكتفى بنبش أذنه وهز رأسه. لم نفهم حينها هل هو موافق على الاقتراح أم لا. لكن الواضح أنه كان أكثرنا امتعاضاً من تحول مسار الجلسة، من جلسة أثيرية شفافة إلى جلسة ثقيلة،فكرية، تراثية، حكواتية، تستدعي التركيز ومزيداً منه. وبعد طول صفنة ونبش في الأذنين نطق أخيراً:

– الله يلعنكم جميعاً ويحشركم مع الحمر المخططة الوحشية، في أسفل درك من الجحيم. لقد انفتحت قرائحكم ونسيتم أننا في جلسة شرب. أما هذا.. وأشار إلى السيد "غفار".. أدعو أن يكون مستقره اسفلكم جميعاً في قاع الجحيم.

ضحكنا وضحك السيد "غفار" كذلك، وقال:

– شكراً لك يا صديقي. أفهم أنك لا تريد للنار أن تمسني، بدليل وضعك الجميع فوقي. لكن لا تنس أني حاولت إنقاذ الموقف!

هذا لا يعني أن السيد "عمار" لم يشترك وبحماس في المشروع لاحقاً، على العكس لقد ساهم وكانت له إنجازات بحثية هامة في موضوعة الأصوات. قال ليلتها في معرض توصيفه لصوت الحمار:

-... وصوت الحمار (النهيق) هو حسب بعض علماء الصوتيات، يعتبر من القياس الأوبرالي، حيث لا يوجد له في علوم الصوتيات لغة أو موسيقى مثيل، صوت عريض مستقر لا يدانيه في ذلك إلا ذكاء الحمار نفسه. فهو ذكاء لا يخضع لنوبات التجديد أو التبديل والابتكار. الأمر الذي يجعل سلوك الحمار محدود ومرتبط ارتباطا يقينياً بوجود صاحبه، كارتباط كثير من البشر بالمرجعيات الدينية والفكرية والسياسية والقومية والطائفية والعرقسوسية.. إلخ إلخ..إلخ ضحك بعضنا. كان في معلومة الزميل شيء من المزحة، إضافة إلى لازمته الشهيرة التي ينهي بها أي حديث، لازمة (إلخ..إلخ.. إلخ).

قررنا كذلك، ترتيب شؤون بيتنا الداخلية. أجرينا بعد أيام على تلك الجلسة التأسيسية أول انتخابات. حصل السيد "نصار" على حصة الأسد من أصوات الجماعة لمقعد (أمير الجماعة)، كما حصل كاتب هذه السطور على ذات الحصة الأسدية لمقعد (الكاتب العام). كُلفت بمهمة الأرشفة والملاحظة والملاحقة التوثيقية لكل ما يخص عملنا، إضافة إلى مهمة ناطق رسمي في المستقبل. ما تبقى من الزملاء وهم ثلاثة شكلوا ما أطلقنا عليه (مجلس شورى الجماعة). وجرى اعتماد مبدأ التوافقية في اتخاذ القرارات المصيرية، مع إعطاء الأمير حق النقض (الفيتو)، على الخصوص في الإجراءات التنظيمية، من ضمنها رفض أو قبول أحد الأعضاء الجدد.

لم يمض على انبثاق جماعتنا الكثير من الوقت، حققنا فيها بعض الإنجازات. لكننا ما زلنا منغلقين بوجه قادمين جدد، لأسباب منها موضوعية، من باب صعوبة إقناع الناس في الوقت الحاضر بالدفاع عن الحمار والحمرنة، لما تكدس في ذاكرتهم الجمعية من قصص وأحاديث وروايات وتفاسير وحكايات وتشابيه وأحاجي، كلها حاولت أن تلصق بالحمار غباء وبلادة وذل البشر. وسبب ذاتي يخصنا، أننا ورغم قناعتنا بالمشروع، قررنا قبل فتح باب الدخول لقادمين جدد، على الأقل ومن باب أولى، أن نخرج بأفكار عامة حوله نقدمها للناس.

من تلك الأفكار العامة، إننا استنبطنا بعد جهد غير قليل وبشكل أولي، عدداً من المبادئ الأخلاقية وجعلناها شروطاً لعضوية الجماعة، فيما لو فكرنا بتوسيعها لاحقاً. قررنا تقديم تلك المبادئ على شكل وصايا.

<u>وصايا للأعضاء</u>

1- اعمل بصمت! لا تبشر وتسمسر لإنجازك، بل دعه يبشر ويروج لنفسه. هل رأى أحدكم حماراً يملأ الجهات نهيقاً، لمجرد أن أسلافه حققوا في زمن ما إنجازاً حضارياً !!؟ لا نظن، رغم معرفتنا أن هناك خمس حضارات مكتشفة لحد الآن، على وجه هذه الأرض، شُيدت وقامت جميعها على ظهور الحمير!!

2- لا تكن خبيثاً، أنانياً، عدوانياً! الحمار حيوان مسالم بالفطرة لا يعرف اللؤم ولا يعتدي، هو فقط يرد الاعتداء إذا بولغ فيه عليه

ويشارك أخاه الحمار مأكله وإن كان كومة قش صغيرة لا تذر ولا تنفع.

3- انبذ التمييز! الحمار أخو الحمار مهما كان عرقه، جنسه، لون جلده، مسقط رأسه، كمية علفه أو نوع الزريبة التي يعيش فيها. الجميع حمير، لا أحد يرفس الآخر أو يعضه، لأي من الأسباب الواردة أعلاه. يحصل الرفس والعض في معشر الحمير، لأسباب أخرى، أكثر جدوى ومدعاة للرفس والعض من الأسباب الواردة أعلاه.

4- اصفن.. ثم اصفن.. ثم اصفن! هذا العالم الداخل في بعضه مثل خبيصة غزل بيد طفل عابث، هو أحوج ما يكون إلى الصفنة بالثلاث. الحمار يجدد طاقته اليومية الذهنية والجسدية، التي يتحمل بها البشر، بالصفنة. فيها يراجع معطيات كثيرة، ويخرج بغيرها. يسير بحياته إلى أفق مفتوح بفعل الصفنة. للصفنة فوائد لا تعد ولا تحصى. (سأَتي عليها لاحقاً).

5- اعتصم بالحمرنة! وجدنا أن الحمار يقاوم طغيان وغباء البشر بالحمرنة. تكون الحمرنة شكلاً من أشكال الاحتجاج، التمرد، التحدي، هي رد فعل غريزي ما زال الحمار متشبثاً به. أثبتت الوقائع والحوادث الكثيرة، أن لا سلطة لأحد على الحمار المتحمرن. على كل كائن إن كان بقوائم أو بقائمتين؛ أن يتحمرن وقتما يجد أن الأذى قد طفح كيله. أن لا يظل مستسلماً وديعاً حتى يفطس بفعل

الطغيان. شعارنا الذي سنرفعه في كل المناسبات سيكون: إذا كان لا بد من الموت، مت حماراً متحمرناً ولا تمت خروفاً مستسلماً!

اتفقنا على ضرورة توفر كل هذه الشروط مجتمعة بمن يريد الانضمام إلينا. عملنا كذلك للجماعة شعاراً خاصاً بها، عبارة عن نجمة خماسية بيضاء على خلفية حشيشية زاهية. كُتِبَت على الرؤوس الخمسة للنجمة، الوصايا (تواضع. إخاء. مساواة. صفنة. حمرنة). حتى أن الفنان الذي عمل لنا الملصق – الشعار، قد تحمس لفكرة الانضمام إلينا. لكنه وللأسف، لم يتبع الطرق الشرعية في الانضمام، اتبع بدلها طرقاً معروفة من التملق والمداهنة، مدعياً بمناسبة وبدونها؛ أن مبادئنا هي أفضل من مبادئ الثورة الفرنسية، التي نُسِخَتْ لاحقاً باسم شرعة حقوق الإنسان. الأمر الذي جعل الأمير يمارس حق النقض (الفيتو) في رفض طلبه. وكانت تلك أول مناسبة لاستخدام حق (الفيتو) من قبل الأمير. كنا نحن الأربعة قد وافقنا على طلبه بعد تردد، من باب الامتنان لموقفه منا ومن ثم مساعدته لنا بعمل الملصق– الشعار مجاناً. غير أن الأمير كان أكثر حزماً والتزاماً بالمبادئ منا، قالها بصراحة: لا مجاملة على حساب المبادئ. ثم قدم مبررات استخدام حق (الفيتو):

– صحيح أن "جلال" – وهذا هو اسم الفنان المتملق– يتصف ببعض المزايا النبيلة؛ يصفن ويتحمرن ولديه جلد وتحمل كأي حمار.. لكنه للأسف، يتصف كذلك بالتملق والادعاء والخباثة الدفينة وهذه لا تتوافق مع سلوك من يريد نصرة الحمير.

علماً، أن ذلك الفنان كان صديقاً لنا جميعاً. لكنه وبعد رفض طلبه، انحرف عن صداقتنا متهماً الأمير بالعنصرية والمناطقية وأنه يكرهه وحرمه من تحقيق حلمه بإيجاد جماعة يؤمن بمبادئها. وصار لاحقاً يمرر لنا بشكل مباشر وغير مباشر، عبارته التي غدت دمغة له: سأضل حماراً وإن لم انتم..!! بهذا التعبير أراد بالطبع مناكفتنا أو التشهير بنا من وجهة نظره، عبر تشبيهنا بالحمير الذين ندافع عنهم. في هذا السلوك أثبت لنا صديقنا العزيز، مدى دقة بصيرة الأمير الثاقبة لسلوكه وصوابية ممارسته لحق النقض (الفيتو) برفضه. نعم بدا الصديق لا يختلف عن أي إنسان متخلف حين يريد الاستهانة بأحد يصفه بـ(حمار).

لم يمض الكثير بعد على تأسيس جماعتنا. ربطنا بنا عدداً محدوداً من حلقات الأنصار موزعة على عدد من البلدان. ركزنا عملنا ودعمنا على تلك الحلقات القليلة في الجمهوريات الثلاث إياها. الزملاء هناك دأبوا على تزويدنا بملخص للأوضاع التي تعيشها الحمير كلما حتمت الضرورة، كنا سعداء بآخر ملخص، ذلك الذي قالوا فيه أنهم تأكدوا من جهات مسؤولة ونافذة في إحدى الجمهوريات الثلاث؛ أن حملة إبادة الحمير قد تم إيقافها رسمياً من قبل رئيس الجمهورية، لكن، لم يُصدَر بها مرسوم جمهوري بعد.

لظروف خاصة أحاطت بعملنا، إضافة إلى عبء تأريخ بمجمله مزيف ومزور ضد الحمار، كان عملنا بطيئاً وحصيلتنا متواضعة.

لكنها حصيلة على أية حال، افضل من ذلك الجهل المطبق بهذا الحيوان المختار.

أستطيع القول، أننا قد اقتربنا من فهم لغة الحمير. وجدنا إن للحمير لغة كسائر الكائنات الأخرى. وهذا لا يسجل لنا، قديماً قالوا أن لكل كائن لغة، من النملة إلى البعير، بل حتى للأشياء المنتمية للجماد لغاتها.

اكتشفنا؛ أن لغة الحمير مكونة من قسمين، الأول صوتي، وهو (النهيق) بتدرجاته المتصاعدة على هيئة قوس، والثاني إشاري (لغة الجسد). بدأنا بالنهيق، قسمناه إلى ثلاث مراحل، تمثل بداية ووسط ونهاية القوس. يبدأ الحمار نهيقه بالهمهمة وهي تشبه دوزنة العازف لأوتار آلته قبل العزف، ثم يصعد مع القوس حين يشعرك أنه سينهق، ليأتي في منتصف القوس القسم المهم، أي النهيق الحر، حيث تأخذ أوتار الحنجرة مدياتها القصوى وهذه أطول المراحل في الإفصاح والبوح الحميري وأعصاها على الضبط تحت أية نوتة معروفة. ليتدرج النهيق في التراخي وصولاً إلى أصوات تتباعد وتشبه نشيج الموجوع بألم لا ينتمي إلى الجسد، بل إلى شيء أخر أكثر عمقاً والتباساً، لعله ألم الروح. بهذا التقسيم تدرجنا في التعرف على أبجدية النهيق.

لقد وقع عبء البحث في هذا القسم على الزميل "عمار". إذ عثر وبالصدفة، على سلم موسيقي يعود إلى إحدى الأغاني الحديثة. جلب انتباهه في البدء صوت المغني، بعد أن وجده يحاول تقليد

صوت الحمار. كان السلم من نوع المسروقات، التي تخلط ألحاناً قديمة على حديثة على مبتدعة، أجنبي على محلي، شرقي على غربي، لتخرج على جمهورها بخلطة أعطوها عنوان الحداثة أو (الفيديو كليب)، كما هو شائع في هذا الزمن. وإذ قارن الزميل بين تنويعات السلم الموسيقي لتلك الأغنية الحداثوية وتنويعات قوس الحمار، وجد تطابقاً واضحاً. عندها، استطاع الزميل أن يفك الكثير من رموز قوس الحمار، استناداً إلى المطابقة مع رموز ذلك السلم الموسيقي الكليبي. السلم الذي تحول لاحقاً إلى ما يشبه (حجر رشيد) في بحوث الزميل (عمار). حيث قسم درجات الصعود ودرجات الهبوط لنهيق الحمار إلى مراحل وعقد، ووضع علامات لكل ذلك التنوع بما فيها لتلك الذبذبات التي لا تنقصها الحدة، إنما تكون مهددة بالتلاشي، إذ يتحول فيها الصوت كأنه آتٍ من بعيد.

استغرق الأمر تجارباً كثيرة ووقتاً طويلاً ولما توصل إلى نتائج مؤكدة حول فك شفرة النهيق، أشركنا جميعاً معه متتبعين خطواته منذ اكتشافه الصدفوي الكليبي الرشيدي إلى حل الشفرة بنسبة تقترب من الـ60% كما صرح لنا بتواضع. في كل الأحوال تعتبر النتيجة إنجازاً واضحاً، رائعاً، سهل علينا الكثير من عملنا اللاحق وهو إلى ذلك كان فرصة ممتازة لنتعلم لغة الموسيقى ونوتاتها. لعله فضل يحسب للحمار أولاً ثم لزميلنا.

أما القسم الإشاري، فوجدناه عالماً قائماً بذاته، من الصعب على جماعة صغيرة مثل جماعتنا، تفتقر إلى الكثير من المستلزمات أن

تسبر غوره. قررنا، ولكي لا نضيع في تضاريس ذلك العالم المعقد والمترامي، الذي يستلزم خارطة طريق معقدة لضبطه، الاكتفاء بلغة العيون والصفنة فقط. لذا اشبعناهما بحثاً..!!

هامش رقم (2)

حمار وطني.. حمار مرتد

إن مجرد التفكير بنشر هذا الكتاب، نكون قد خرقنا وصية من وصايانا، تلك القائلة ب–: العمل بصمت. ناهيك عن استثارة الكثير من الأعداء، على خلفية ثقافة شعبية ورسمية مترعة بالزيف والتشويه، وهذا ما لم يدخل في صلب مشروعنا. افترضنا وحاولنا أن لا يكون لنا أعداءً. لكن تبقى حسابات المستقبل لكل حزب أو جماعة ليست باتجاه واحد. سنصادف الكثير من المفاجآت والحوادث التي علينا اتخاذ الموقف منها.

من تلك الحوادث وكما لمحت في الهامش الأول؛ وقوفنا على أخبار مقلقة وموثقة، لجرائم إبادة جماعية، حصلت للحمير في ثلاث جمهوريات متجاورة. كانت حيثياتها؛ أن جماعات معارضة لحكومات تلك الجمهوريات، قد أدخلوا الحمير ضمن أجندتهم القتالية. الأمر الذي دفع الحكومات على شن حملات وطنية لإبادة الحمير. وعلى الرغم من إعلان حكومات تلك الجمهوريات وفي بيانات رسمية؛ أنهم قد تخلوا عن تلك السياسات، التي برروها، بمؤامرات خارجية استهدفت إثارة القلاقل وعدم الاستقرار لبلدانهم، إلا أن الأمر ظل مقلقاً لنا.

القلق كان مصدره تلك الجماعات. كانت مهمتنا معهم أصعب بكثير من مهمتنا مع الحكومات. الحكومات بطبيعتها تداري كل ما له علاقة بالخارج من مواقف دولية، مواثيق دولية، مناشدات دولية،

وفود..إلخ ما يمكن إجماله بالشق الدبلوماسي من عملها. على خلاف تلك الجماعات، التي لا تتمتع ولا تعترف بأي شق، لا ديبلوماسي ولا غير ديبلوماسي. وحتى حين حاولنا أن نبسط لهم الأمر بالوقائع والأدلة الملموسة: إن ما تفعلونه يا جماعة؛ لا يصب في مصلحتكم بل يجعل العالم كله ضدكم..! أجابونا ب-: طز.. ونحن كذلك ضد العالم!! عندها لم يعد لأي حوار جدوى.

حوارنا الأخير كان مع أمير من أمراءهم الكثر. قيل لنا أنه يعد نفسه ليكون أمير متقدم –هذه كما يبدو رتبة من رتبهم لا ندري إن كانت دينية، عسكرية، سياسية- قلنا له ومن باب المساومة:

- يا سيدي! أننا سنتفهم الأمر لو اقتصر على استخدام الحمير في المهمات اللوجستية، سيكون الوقع أقل إيلاماً للحمير ولنا، رغم أننا نرفض ومن حيث المبدأ، إشراك الحمير في الحروب والصراعات الدينية والسياسية بين البشر.

كذلك أجابنا ذلك الأمير وباستهتار واضح:

- طز فيكم وعليكم ولكم.. إنها بهائم سخرها الله لنشر دعوته السمحاء..!!

بدا لنا أن الـ(طز) هي مفردة دينية شائعة كثيراً في أدبياتهم. وحين أردنا التعليق على تلك المفارقة القائمة بين دعوتهم السمحاء ونحر الحمير ومعها البشر، أغلق ذلك الأمير نافذة (الماسينجر) بوجه أميرنا ومعها باب النقاش والاجتهاد. ولجعلنا نأخذ غضبه على محمل الجد، توعدنا لاحقاً برسالة إلكترونية، على عنوان جماعتنا

على الشبكة العالمية، جاء فيها، بعد البسملة والتعوذ من الشيطان الرجيم:

(إلى عبيد الشيطان..

.... سننسفكم ومن والاكم من الكفرة والملحدين والشيوعيين والإباحيين والعلمانيين والديمقراطيين والمنافقين والزنادقة وأصحاب البدع من الروافض والحوافر والفوارس والحوامض.. يا من اتخذتم من الأصنام والحمير أربابا من دون الله... يا من جعلتم عري الحريم والفساد مقياساً لتقدمكم.. سنجعلكم تقولون أن الله حق والجنة حق وجهنم مأواكم حق والجهاد حق...).

كانت الرسالة طويلة مترعة بأحاديث منقولة عن وعن وعن.. ومطعمة بمفردات فشار وشتائم تنتمي لما بعد الحداثة بكيلومترين.. وأنهاها بـ(اعذر من أنذر).

على العموم موقف البشر في تلك الأصقاع، لم يزل سلبياً من الحمير. بدلاً من نصرتهم للحمير المتضررة من أعمال أولئك المعارضين، باعتبارها ضحايا، كما هم في الواقع ضحايا للقتل العشوائي. وجدناهم يرددون وبغباء واضح لا علاج له، العبارات إياها. إذ يريدون النيل من هؤلاء، يطلقون عليهم لقب حمير. على خلفية أغبى من السذاجة تعتمد تفسيراً يقول؛ أن من يسمح لغيره بلفلفة جسده بأحزمة الديناميت، ثم ينطلق بين الناس قنبلة موقوتة، ما هو إلا حمار بقائمتين..!! ولكم أن تتصوروا مدى الظلم اللاحق بالحمير ومن كل الأطراف..!!

كل ذلك دفعنا لأن نفعل شيئاً. على الأقل، سنحاول من خلال هذا الكتيب، أن نجلو بعض الغشاوة الكائنة على أبصار الناس وعقولهم. لنثبت لهم وبالملموس؛ أن تاريخ الحمار يشهد؛ أنه ما كان يوماً مؤذياً للبشر، وأن أخلاق فصيلته لا تسمح له بأذية طفل ما بالك بجرائم الإبادة الجماعية!! وسوف لن يكون آخر الأمثلة التي نسوقها للناس، لعلهم يعون، موقف ذلك الحمار الشهم، الذي ملأ صيته الآفاق، الحمار الملقب بـ(أبو الوشم).

لقد تحمرن (أبو الوشم) ورفض أن يكون وقوداً وسبباً لجريمة إبادة جماعية كانت ممكنة الحدوث. قيلت عنه كثير من الروايات ولكل رواية خلفية ومقاصد مختلفة عن الأخرى، إنما الجامع بينها كلها هي تلك الحمرنة التي جاءت في وقتها. قيل: بعد أن ربطوه إلى عربة مفخخة ومحملة بالبنزين، وضعوا على ظهره عدداً من الصواريخ الموجهة عن بعد، ثم جعلوه يسير وحيداً فريداً بعربته، في شارع مزدحم بالبشر. كان في نهاية الشارع موقعاً عسكرياً متحركاً، يعود لقوات أجنبية كانت قد احتلت تلك الجمهورية. ما حصل يا سادتي؛ وبفضل حنكة وشهامة ذلك الحمار، أنه قرر وبشجاعة منقطعة النظير، عدم تنفيذ المهمة. لقد فهمها وهي (طايرة) كما يُقال؛ إذ بمجرد اقترابه من تجمع البشر ستُفجَر العربة وهو معها. لذلك وقف في جزرة وسطية بين شارعين، بعيداً عن تجمعات الناس على الأرصفة. انطلقت بعض القذائف من على ظهره باتجاه أهدافها التي أخطأتها. لكنه ظل رابط الجأش، واقفاً حيث هو. كانت

الخطة؛ أنه وبعد انطلاق تلك القذائف؛ من المؤكد أن الحمار سيهيج من قوة الصوت وسيصول ويجول بعربته المحملة بالديناميت والبنزين في جموع الناس، عندها سيفجرونه عن بعد. لكنه، أحبط سعيهم. احتفظ بعيد انطلاق القذائف بهدوئه الحميري، متشبثاً بالمكان الذي اختاره هو، حتى نفد صبر مخططي تلك العملية، إذ تركوا مكمنهم وهربوا، لاعنين الحمار وجنس الحمير. لعل العناية الإلهية، هي التي تدخلت أخيراً وأنقذت الحمار لبراءته وحسن طويته وأنقذت معه الأعداد الغفيرة من الناس في ذلك الشارع.

أثار التنفيذ النصفي للمهمة، الكثير من اللغط بين الناس، وفي الصحف والقنوات الفضائية، بين قائل: أنه عميل للاحتلال، وإلا لِمَ لم يكمل مهمته كما رسمها قادة الجماعة، وكان هذا رأي سواد المحللين السياسيين التكتيكيين والستراتيجيين، الذين تستضيفهم إحدى القنوات المناصرة لحملة تجنيد الحمير. واضعين اللوم على قادة تلك الجماعات، لافتقارهم إلى خطة تنظيمية محكمة، مما ساهم بدخول كل من هب ودب في صفوفهم، دون تمعن في خلفيته. أما على الجبهة المناهضة للجبهة الأولى، فكانت الآراء كلها في صف الحمار، إذ قالوا: على العكس كان حماراً وطنياً، بدليل أنه نفذ الشق الخاص بقوات الاحتلال من العملية وأبطل مفعول الشق الثاني الخاص بالمواطنين.

الأمر الذي استفز إحدى الجماعات المقاتلة، إذ كفرت الحمار بالمطلق، بل وأدخلته على اجندة من ستقطع رؤوسهم أمام عدسات

التلفزيون، ليكون عبرة لمن لم يعتبر بعد من الحمير بقائمتين أو بقوائم. قالت تلك الجماعة في بيانها قرأه أحدهم على خلفية سوداء فيها شعار الجماعة وبعصبية وحماس واضحين: " أنه حمار خائن ومرتد حل قطع رأسه.. وأن سرايانا له بالمرصاد".

لقد ظلت قضية ذلك الحمار تتفاعل لأيام وأسابيع، تناولتها كل وسائل الإعلام المحلية والعالمية بالتحليل والترويج، وكل يروج ويحلل على ليلاه. حتى قطع دابر اللغط أحد الفقهاء، من أولئك الداعين إلى الوسطية، وعلى نفس الشاشة التي عرضت التهديد بالذبح. لقد انتقد ذلك الفقيه وعدل بيان تلك الجماعة، قائلاً: "أعتقد أن هناك خطأً قد حصل وهو بالقطع خطأ غير مقصود في بيان الأخوة. نعم، الشرع يقول عليهم أن يقتصوا من الخائن والمرتد بالذبح، لكنني أنصحهم ومن باب عدم إعطاء ذريعة لأعداء الدين، أن يكتفوا بقتل الحمار بالرصاص، لأن القتل نحراً بالسيف لا يصح شرعاً إلا للكفرة من خارج الملة والمرتدين من داخل الملة، على أن يكونوا من ذرية آدم (عليه السلام)، أما الحمار فهو باتفاق العلماء ليس من ذرية آدم.. والله أعلم ".

لم يعترض أحد من مذيعي ومعدي أو مشاهدي تلك القناة على فتوى الفقيه التي بثها على الهواء الطلق، لمعرفتهم أنه لا ينطق عن الهوى، بل من عادته تحصين نفسه وتدريعها بأحاديث وروايات وآيات كلها تعود إلى ما قبل ألف سنة، يفحم بها من يريد التشاطر عليه. على العموم كان باع ذلك الفقيه مشهوداً له وحرصه على

وحدة الأمة وقيامتها قيامة رجل واحد أو قومة رجل واحد كالبنيان المرصوص، كما يردد دائماً، كذلك مشهوداً له بها. أما عن شهرته الوسطية؛ فقد قيل عنه؛ أنه كان يحب الوسط في كل شيء وليس فقط في الدين. حين يدعوه الأمير بصفته فقيه الإمارة إلى حفلة شواء على البحر، كانت لقمة الشيخ معروفة، حتى أنهم بدلوا اسمها من (لقمة الصياد) قديماً إلى لقمة (الشيخ الصبخاوي). الشيخ من مواليد بلدة (الصبخاوية) التي سنأتي في الحديث عنها لاحقاً. حتى أنه قيل؛ حين اتصلت به مذيعة تلك القناة الفضائية، لاستيضاح رأيه حول الذبح، كان الشيخ حينها منشغلاً بشؤون زواجه الشرعي الجديد، من سيدة بعمر وسط بين الصبا والعنوسة، ومتفقهة فقهاً شاملاً من فقه الحجاب إلى فقه الإنجاب، وأن الذي شهق على نغمة جرس الهاتف النقال الخاصة بالشيخ بـ(هلاّ وقتها..!؟) كانت تلك السيدة وليس الشيخ. كل هذه المعلومات مستقاة، من أحاديث جانبية وخلفية وأمامية، لعدد من صحفيي تلك القناة وهم الأعلم ببواطن ونوازع الشيوخ.

الذي يهمنا من كل هذا، أن الشيخ لم يتدخل لإنقاذ الحمار. وهذا هو الأمر الذي دعانا إلى عقد اجتماع طارئ، بحثنا فيه الإجابة على سؤال: ما العمل؟ حتى خرجنا بقرار؛ أن نخرق مبدأ الصمت مؤقتاً، لحين انجلاء سحب الأحداث، ثم نعود إليه فيما بعد.

مهما قيل ويقال، كان غضبنا ثقيلاً، بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد. فكرنا بعد الاجتماع الاستثنائي أن نعلن بياناً استنكارياً يقرأه

الكاتب العام (حضرتي)، وعلى شاشة تلك القناة الفضائية، على الأقل من باب الرأي والرأي الآخر. لكننا وبعد التشاور الإضافي عدلنا عن ذلك. أولاً، خوفاً من أن تدخلنا تلك القناة في دعايتها، رغماً عنا هذه المرة وبطريقة المونتاج الحديث، وقد فعلتها مع كثيرين غيرنا، أظهرتهم أمام الملأ مناقضين لمبادئهم وحتى لمصالحهم، بلا رأي آخر وبلا بطيخ. ثانياً، رأينا أن لا جدوى من البيان نفسه، لأن أفراد تلك الجماعات الذين نستهدف إقناعهم بوجهة نظرنا، هم في العادة، محرومون من عادة تشنيف الآذان لسماع الجديد من الأصوات، لا يستمعون إلا لأصوات شيوخهم، وهؤلاء لا ينقلون لهم إلا الأصوات القادمة من التاريخ وهذا كما عرفناه؛ تاريخاً مشوهاً ومزوراً بامتياز نادر في ما يخص الحمير. لكل تلك الأسباب عدلنا عن نيتنا.

لكننا مع ذلك، تحركنا على جبهتين. الأولى كانت فكرية تنظيرية، قررنا إصدار كتاب حول شؤون الحمير وسجاياها وإنجازاتها التاريخية، أما الثانية فكانت تطبيقية، استندنا فيها أو بالأحرى استنجدنا بصديقتنا الجميلة إياها الثروة القومية لبلدها، للحصول على تلك التوصية، التي ستدخلنا حدود الثلاث جمهوريات بأمان نسبي. علنا نخرج بتوصيات عملية، نابعة من مشاهدات عيانية، نرفعها إلى الأمين العام الأممي لشؤون البيئة.

سوف لن نترك وسيلة ولو فيها بصيص يدعم مشروعنا إلا ونتبعها. سنركز بادئ ذي بدء على جمهور المثقفين. وجدنا ذات الداء ينخر

هذه الجمهرة التي تحسب نفسها على الثقافة والعلم. قرأنا لأحد الكتاب دعوة، دعا فيها بعلانية وحماس إلى تشكيل حزب جديد من الحمير، أطلق عليه (حزب الرفس والنهيق.. لحمل القنابل وأكل الدقيق)، داعياً إلى تطوير استراتيجية المقاومة، بخطة مفصلة ذات شقين، الأول وهو الأهم برأيه؛ تشكيل سرايا وفصائل تنتشر في الصحارى والبراري بحثاُ عن حمير سائبة، والثاني؛ تفعيل جبهة التمويل على طول خارطة المقاومة من الماء إلى الماء.

هذا الأمر قد استفزنا أكثر من غيره وفرض علينا التحرك بسرعة على هذه الجبهة الاستراتيجية. خصوصاً وأن الشطر الآخر من المثقفين، أولئك الذين ناصبوا هؤلاء العداء، لم يكونوا أقل ضرراً على قضية الحمير منهم، أنهم وبدلاً من دفاعهم عن الضحايا والضحية الأول وهو الحمار، صاروا يكيلون من أكداس الحكم والتشابيه والروايات والقصص الملفقة بحق الحمار، فقط لتشبيه خصومهم به. في النتيجة هم يسخرون من الحمار. على أية حال، كما هو واضح أن الطرفين ورغم اختلافهما الايديولوجي الشديد، ألا أنهما متفقان على إدامة دوران طاحونة الأكاذيب والتشويه لسمعة وتاريخ الحمار. لا عتب عليهم، ما زالوا بشراً دأبهم يستسهلون العداوات على الضعيف، جُبلوا على طوية غريبة من الإكراه والشر وكيل الشتائم والمدائح.

سيكون هدفنا المرحلي؛ إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الحمير المهددة بخطر الإبادة الجماعية في الجمهوريات الثلاث. ولاحقاً، سنعمل

على إخراج الحمير كليا من دوامة الصراعات السياسية والدينية بين البشر. وهذا ما نحتاج به إلى قرار أممي.

حصلنا على التأشيرات بسهولة غير متوقعة، رغم سحناتنا التي تشي بانتمائنا أصلاً إلى تلك المنطقة المتخاصمة مع نفسها. لم يخل الأمر من عرقلة هنا أو هناك، على الأخص من بعض شرطة الحدود والانضباط العسكري المنتشرين في الثلاث جمهوريات. غير أن توصية وزير الداخلية، التي كنا نستحصلها قبل المباشرة في أية مهمة والموجهة إلى كل من يعترضنا كانت كفيلة بتسهيل الأمر. حتى بدا لنا كأن تلك الصديقة العزيزة قد تعرفت على كل وزراء داخلية المنقطة. ما أن يفتح السيد الوزير المغلف، حتى تفتر شفتاه تحت شاربه الغليظ، ويهز رأسه صعوداً وهبوطاً على طريقتنا. وبعد أن يقرأ خطاب صديقتنا، يقوم من مكتبه ويصافحنا. ثم يطري على عملنا أيما إطراء، بل يشعرنا بالفخر، كوننا ننتمي إلى هذه الأرض المعطاء التي أخرجت للعالم الحضارات والأديان وعلمتهم القراءة والكتابة والحساب واللطم على الصدور وهز الأرداف والبطون...إلخ حماسة يرد عليها أميرنا بأحمس منها، في محاضرة عن فضل الحمير على تلك الحضارات المشار إليها في حديث السيد الوزير.. لولا الحمير ما كنا قد شاهدنا تلك الآثار العظيمة التي نفتخر بها بين الأمم يا سيدي.. لولا الحمير ما كانت هناك لا زراعة ولا صناعة ولا تجارة ولا بطيخ يا سيدي.. لولا الحمير ما كان هناك بريد يا سيدي.. لولا.. لولا.. هكذا يواصل الأمير (لولاته) حتى

ليظن السامع أن الحمير أولاً والحمير تالياً في كل إنجازات المنطقة. الغريب في الأمر؛ أننا وجدنا كل وزير من الوزراء الذين التقيناهم قد أيدنا بحماسة منقطعة النظير، متناسياً بسرعة البرق ما قامت به وزارته من أعمال إبادة يندى لها الجبين..!!

في البدء، كنا نتعمد المشاكسة والزوغان في الأماكن والدروب للخلاص من مراقبة عناصر الأمن، التي كانت تتبعنا كظلنا من أجل حمايتنا بالطبع. واضح، أننا ورغم الضمانات المهمة التي بحوزتنا، لم نتخلص بعد من عقدة الخوف من شرطي الأمن. أظن أن العقدة غير مستحدثة في سلوكنا، إنما هي موَرَثة لنا من أسلاف كثار مرت على أجسادهم إنجازات وخبرات أجهزة الأمن. لكننا، اكتشفنا لاحقاً أن فوائد شرطي الأمن لعملنا كانت أكثر من أضراره، خصوصاً في مواقف كنا لا نحسد عليها، إليكم هذا المثال: جلبت انتباهنا في أحد الأسواق حالة حمار كان يسحب عربة قديمة من ذوات الإطارين. عمل صاحبها على موازنة عربته مع جسد الحمار، بوضع عدد من الصناديق معادلاً تماماً لوزن الحمار. كان الحمار يسحب العربة بجهد ومعاناة واضحة، لأسباب تعود إلى هزالة جسده وربما حتى مرضه. لكن ما أشعل الأزمة بيننا وبين صاحب الحمار، هو تطفل بعض غلاظ القلوب والأجساد ومن دون معرفة صاحب العربة. إذ كانوا بين الحين والآخر يضعون عجيزتهم الثقيلة على العربة من الخلف، عندها تميل العربة رافعة معها الحمار المسكين إلى الأعلى..!! كان المنظر من البشاعة والظلم بحيث

أخرجنا عن طورنا، خصوصاً وأن العملية وبعد أن تكررت أصبحت بمثابة تسلية للجميع. سوق مزدحم بكل شيء وفي وسطه حمار معلق في الهواء. منظر يثير الفضول والضحك بالتأكيد. من هذا الذي سيلوم الحمار لو تحمرن..؟ وفعلاً فعلها الحمار، حرن في مكانه لم يتحرك سنتيمتراً واحداً، ولم تجد معه كل وسائل التعذيب التي مورست على جسده. حتى وجدنا أن صاحب الحمار قد نسى شجاره مع أصحاب العجيزات الثقال وصار يطلب نجدتهم في تعذيب الحمار..!! عندها تدخل أميرنا بصوت لأول مرة نسمعه يخرج من حنجرته، صوت زاجر صارخ ومعنف:

– توقف!!

ودخلنا معه في الفخ. نعم، كان الوضع أشبه بفخ منصوباً لنا وليس للحمار. رد صاحب الحمار وهو يمسح العرق من جبهته، لكن بهدوء هذه المرة:

– تطلع مَنْ أنت لو سمحت..؟

السؤال موجه لأميرنا، وعلى رغم معرفتنا بحيثيات السؤال، إلا أنه كان محيراً لنا. من جهة لا نريد أن نصرح بهويتنا ومن جهة أخرى؛ الناس هنا قد اعتادوا على كلائش تقال في الشجار، من نوع: أنت تعرف مع من تتكلم؟ أو: والله العظيم.. أخليهم يضيعون أثرك..؟ طبعاً من هم هؤلاء الذي يضيعون آثار الناس، هذا سؤال لا يُسأل. لأن إجاباته على كثرتها وتشعبها تبقى معروفة، رغم الإدعاءات الكثيرة والمزاعم والكذب في الأمر. لكن، الناس اعتادت على تجنب

الخوض في أمر مجهول أو غامض.. تكون تلك (الكلائش) بمثابة هجوم قوي ورادع أحياناً، على من يتطاول عليك، خصوصاً إذا كنت بمظهر مناسب وشكل واثق من نفسه لتدعم تهديدك. المهم، أننا قد سقطنا في الفخ. لم يرد أميرنا على صاحب الحمار بأي من تلك (الكلائش)، بل واجه المتجمهرين حولنا وهم كانوا السوق كله تقريباً:

– أخوان! رجاءً استدعوا الشرطة..!!

مع هذا الطلب غير الواضحة مقاصده، على الأقل لصاحب الحمار.. يعني ما دخل الشرطة بالأمر..!؟ حمار وصاحبه على خلاف أو لنقل شجار بسيط بين أثنين أو ا كثر حول حمار في السوق، الأمر في كل الأحوال لا يستدعي الشرطة. ولما لم يستجب أحد للطلب، رفع أميرنا من حدة الدهشة في وجوه الجميع، موجهاً حديثه إلى صاحب الحمار:

– أسمع..!! إذا لم يستدع أحد الشرطة.. أنا مضطر لمصادرة الحمار، ولتتدبر أمرك مع بضاعتك بدونه..!!!

مع هذه الضربة المفاجئة، كأن الناس على رأسها الطير، لم ينبس أحد ولا حتى صاحب الحمار، فقط الحيرة تلبست وجوه الجميع. ترى من يكون هذا القادر على مصادرة حمار في السوق وما هي رتبته ومنصبه ومسئوليته وهل هو من الذين يضيعون آثار الناس..؟ خرج فجأة صوت من بين المتجمعين، وكان واثقاً من نفسه:

– ومن تكون أنت لتصادر الحمار من صاحبه؟

رد زميلنا:

– سأقول للشرطة من أكون..!!

مرة أخرى رمى أميرنا الكرة في ملعب الشرطة..

رد الآخر:

– أنا شرطي. هذه بطاقتي..!!

أخرج من جيبه بطاقة صغيرة. لكن الجميع قد شاهدوا رأس المسدس مدسوساً قرب عجيزته، لذا أحد منا لم ير ما مكتوب في البطاقة، كان المسدس كافياً. عادت الكرة من ملعب الشرطة إلى ملعبنا. ارتد أميرنا إلينا يبصبص بعيونه وكأنه يبحث عن نجدة. ولما لم يجد إجابة في عيوننا المشدوهة. التفت إلى الشرطي وقال بتأن مقصود:

– أخي! نحن نمثل جمعية تعمل على إنقاذ الحمير الآيلة للانقراض.

فجأةً، وبعد انتهاء الأمير من جملته التعريفية الطويلة والتي قالها ببطء، خرج من بين الجموع المحتشدة صوت (عفطة) قوية..!! كان الصوت حاداً ومدوياً، إلى حد ليس نحن فقط، بل كثيرون انزلوا رؤوسهم بفعل لا إرادي، كأن الصوت كان صوت طلقة خطفت فوق الرؤوس. بعد لحظات من الصمت والترقب انبثق ومن بؤرة غير محددة في الحشد الملتم حولنا، ضحك جماعي منفلت، لم يسيطر عليه أحد، بل، حتى الشرطي دخل فيه. كنا الوحيدين في البدء نتلفت بعيوننا في الجمع الصاخب، حتى التقت عيوننا مع بعضها

أخيراً، عندها انفجرنا نحن كذلك وعلى غير موعد بضحك طويل تخلله تبادل ضرب عنيف وخفيف على الأكتاف والظهور. الوحيد الذي ظل صامتاً تماماً في ذلك الحفل العبثي، هو الحمار. كم دامت تلك الفوضى الساخرة..؟ لا أدري.. لعلها امتدت طويلاً، بدا لنا الأمر كأن الضحك كان محتبساً في صدور الناس لقرون طويلة وانفجر تواً، ضحك مجنون قد أدمع العيون، صار كل واحد في الحشد يمسح عيونه ويربت على كتف جاره وليس مهماً إن كان يعرفه أو لا يعرفه. لكننا، رغم الفوضى، سمعنا من بين اللغط والصخب أحدهم كان يدس بين مقاطع ضحكه سؤال أراد نسف كل مشروعنا:

– إلى أين وصل الغباء بهؤلاء..! إلى أين وصل جهل العالم بنا..!!؟ يا عالم.. يا هووو... أن البشر عندنا هم الآيلين للانقراض وليس الحمير..!!

أخيراً قطع الشرطي الضحك، بصوت جهوري آمر متمترس ومتمرس على الأوامر، لعله سمع سؤال ذلك المشاغب كما سمعناه نحن:

– كفى..!

عاد الطير من جديد فوق رؤوس الحشد. التفت صوبنا، إنما بعيون وملامح تقدح شرراً:

– أعطوني بطاقاتكم..!

بحثنا بعيوننا عن عيون الأمير، وجدناه لم يزل رابط الجأش، قالت عيونه: لا عليكم. أخرج من جيبه مغلفاً رسمياً وقدمه للشرطي، إنما بتباطئ مقصود، كأنه يحذره. أخذه الشرطي بيد مترددة هذه المرة، وما أن لمح شيئاً فيه، حتى صارت عيونه لم تتوقف من البحلقة مرة في المغلف وأخرى في عيون الأمير. بانت سحنته متخاصمة مع نفسها، لأنه مرة يفك أسارير وجهه مكشراً بوجوهنا وهو يريد الابتسام ومرة يدعكها بغضب ليرسم على وجهه تجاعيد وأخاديد وتضاريس لا يفك شفرتها العراف. أخيراً، وبعد أن تأكد صاحب السحنة المتخاصمة مع نفسها من جدية المغلف السحري الذي بين يديه، المختوم بشعار وزارة الداخلية وعنوان مكتب الوزير وإمضائه، هش لنا وبش في وجوهنا وكأنه يريد معانقتنا من التوسل والاستعداد لعمل أي شيء نريده. ثم صعِّد الموقف العاطفي الفجائي باتجاه لم نتوقعه. أخذ يبحث عن صاحب (العفطة). أين سيجده من بين تلك الجموع المحتشدة حولنا..؟ استعان بغريزته الأمنية، التي تجعل رجل الأمن يعرف العدو من شكله ونظراته. رفع إصبعه عالياً وأخذ يعلم أفراداً من الحشد.. أنت.. وأنت.. وأنت..!! لم يكن واضحاً لنا؛ ما الرابط بينهم. كان الأول شيخاً متهدماً جسداً ونظرات والثاني شاب يافع بنظرات ذكية، بينما الثالث كان الغباء يطفح ليس من عيونه فقط بل من كل كيانه. بعد أن شخص المشتبه بهم، رفع صوته آمراً متوعداً:

– كل يذهب إلى عمله. ليبق هؤلاء فقط..!!

لعل ذلك المشاكس صاحب (العفطة – الطلقة) كان من بينهم ولعله لم يكن. لكن من يستطيع أن يجزم..؟ وجدنا مهمتنا قد انحرفت قليلاً، من استغلال الموقف لمعالجة مأساة الحمار، إلى طلب المساعدة لأولئك المشتبه بهم. صار أميرنا يتوسل الشرطي هذه المرة للعفو عن المشبوهين والشرطي ما انفك يتوعد:

– والله العظيم.. سوف أضيع أثرهم..!!

هذا يتوسل وذاك يتوعد، حتى سمعنا أميرنا وقد نفذ صبره للأخير؛ يصرخ بوجه الشرطي:

– والله العظيم لو مسستهم بسوء.. ستكون أنت من يضيع أثره..!!

رجع من جديد ذلك الطير يرفرف على رؤوسنا هذه المرة. كنا مذهولين من قدرة زعيمنا على تقمص الأدوار والدخول هذه المرة في نفق تضييع الآثار، رغم أننا لم نفهم بعد ماذا يريد الجميع هنا من تضييع الآثار. ألا يكفي الموت..؟ لماذا تضييع الآثار..!!؟

الملمح العادي لوجه أميرنا هو الطول، هو الأبرز من بين الاستدارات والأخاديد والتجعدات، إضافة إلى قتامة سواد جلدته. ما أدهشنا في تلك اللحظة التاريخية، تحول وجه الأمير الطولي إلى الاستدارة، ليس هذا فقط، بل وخدوده انتفخت وصارت تلصف احمراراً قانياً مائلاً للزرقة وفوقها العينان الخرزيتان انتفختا كأنهما سينطان من محجريهما. لقد تحول وجه أميرنا إلى قناع مخيف ينذر بشر مستطير. بصراحة، لقد أخافنا نحن أصدقاؤه ومجلس شورته، ما بالك بالشرطي المسكين..؟ عند ذلك الحد، توقف اللغط، لأن

زردوم الشرطي صار هو الذي يتنفس بدل قلبه، وتحللت كل العقد. ذهب المشبوهون كل إلى شأنه وتفاهمنا مع صاحب الحمار، على أخذ الحمار إلى دكتور بيطري، ليعالج جروحه مع تعهد أن لا يحمله أكثر من طاقته في المستقبل، أكثر من هذا نفحه الأمير بمبلغ من المال لمساعدته على شؤون البيطرة.

إذن، كان لصديقتنا العزيزة كل الحق في التشكيك بنا في البداية. أذكر أنها وبعد أن شرحنا لها أهدافنا، أنفرج فمها المدوخ ولاحت منه ابتسامة ساحرة. لا أدري كم دامت تلك الابتسامة، لكنها أراحت أعصابنا المتوترة، وخففت عنا الكثير من العبء الذي كنا قد أثقلنا أنفسنا به تحوطاً لذلك اللقاء. قالت لنا تلك الابتسامة، لا عليكم، لقد وصلتم، لا داعي لكل الكليشهات والمقدمات التي أخذت منكم اجتماعات كثيرة لأعدادها، لا داعي لكل التهيب الذي رافق حضوركم بين يدي. ثم احتضنتنا، نعم، لقد احتضنتنا بالملموس، قامت وعانقت كل واحد منا وقبلته على خده، لقد لامس خدها الناعم نعومة خدود الأطفال خدودنا كلنا وتضوع عطرها في رؤوسنا قبل أنوفنا. أنها ما زالت تتبع طريقتها الهوليوودية القديمة باختيار العطر المدوخ للمشاعر والحواس. لما عادت وجلست، قالت:

– في البدء لم أصدق. حسبت أن بلادكم لا شيء فيها غير الصحراء والنفط والقتل والدمار والتخريب. لم أحلم أن تكون لنا جمعيات في تلك البلاد القاسية لحماية الحمير مثلاً. ها أنتم شبان تفيضون حماساً ووعياً وتعرفون ماذا تريدون.

كان مدحها لنا قد أخجلنا، جعلنا نطأطأ رؤوسنا بانتظار أن تفرغ من كلامها لنرد لها الجميل بأجمل منه. قال أميرنا وهو ينظر إلى الأرض:

– في الحقيقة... تستطيعين أن تعتبري جماعتنا جزء من مشروعك الحيواني الكبير..

تلعثم قليلاً، ثم صحح:

– قصدي... مشروعك الإنساني الكبير..

توقف كذلك. بدا يبحث عن المفردة اللازمة دون أن يجدها. حتى صححت هي له:

– بل قل الإنساني. لأن البيئة التي أسعى مع غيري من أجل حمايتها هي بيئة إنسانية حيوانية نباتية. هي كل متكامل، صحيته تكمن بتكامله، لا يصح حماية جزء منها دون الآخر.. حماية الحيوانات المعرضة للانقراض أمر يفيد الإنسان نفسه. الطبيعة كاملة في تنوعها ومتوازنة، أي هلاك لنوع من أنواعها سيتسبب بفقدان التوازن وبهلاك آجل لبقية الأنواع. لكني اخترت الحمير من بين الحيوانات، لأني أحببتها، وجدتها حيوانات ذكية، وديعة، أليفه، بريئة، شجاعة، خدومة.. صدقوني ستجدون فيها كل الصفات التي يحلم البشر الاتصاف بها دون أن يفلحوا.. سوف لن تندموا على اختياركم هذا.

لقد تلعثم أميرنا في الحديث، رغم لذاعة لسانه أمامنا. لكن معه حق. الذي أمامه لم تكن امرأة عادية، كانت أيقونة من الجمال

المتكامل، رغم سنينها التي تجاوزت الخمسين. من هذا الذي يصمد أمام ذلك الوهج من الإثارة الأنثوية، كأنها لم تتعطر، بل جسدها هو منبع العطر الذي لا ندري كنهه، مدوخ، مخدر، مهيج. وفوق كل تلك البلاوي لم يكن ينقصها الذكاء ولا سرعة البديهة، والأهم أنها تحادثنا وتعاملنا لا كما اعتادت النساء في بلادنا، مطأطئة الرأس، خجلى، لا تدري ماذا تقول، أو تخجل مما تقوله، حدثتنا بحضور طاغٍ مسح الأرض بحضورنا. أنت لا تستطيع أن تواصل النظر في عينيها طويلاً، بينما هي لا تتحدث إلا إذا كانت عيناها مثبتتين تماماً في عينيك، وإلا من أين يداهمك ذلك السحر المنوم، إن لم يكن من تلك العينين الملونتين اللتين تنثانه نثاً في جوانحك الخاوية. كانت تحفة بشرية نادرة تلك الفاتنة، الثروة القومية، لا تلد الإنسانية كل يوم تحفة مثلها. ألم يكن محقاً مدير شركة التأمين، تلك التي حاولت التأمين على ساقيها، ساخراً من سذاجة مستشاريه الذين وضعوا أمامه اقتراحات بأثمان التأمين:

– هذه الأرقام تستطيعون أن تأمنوا فيها على سيقان جداتكم. ثمة سيقان لا تقدر بثمن يا أغبياء!!

كانت ملكة، قواماً، عيوناً، وجهاً، كل شيء فيها كان مربكاً. بعد كل هذا اللغط واللغو أعلن استسلامي. أنا غير قادر على وصفها. لأدعها كما هي، وأقول فقط أنها كانت ملكة، ليس بمعنى ملوكية العروش المبتذلة عندنا، بل بمعنى آخر لا أدري ما هو، لكنه محسوس، طاغٍ تخبرك به كل همسة من كلامها الناعم اللذيذ، كل

لفتة، كل صفنة من صفناتها، هي أيضاً تصفن، لكن صفنتها في كل الأحوال لاتشبه صفنة (غفار) مثلاً، هذا إذا أراد الصفنة كأنه مقبل على عراك. هي تصفن ولا تحس أنها صافنة، صفنتها من نوع سهوم مبحر في عوالم شفافة تكاد تحسها أنت الناظر إليها. اعتادت حين تستمع أن تحرك رأسها تلك الحركة المذهلة صعوداً وهبوطاً.. أرجوكم دعوني من وصفها، سأفشل حتماً. لم يسبق لي أن وصفت جمالاً، خصوصاً أن عملي كان على الدوام مع الزرائب وأصحاب الزرائب، لقد استغرقتني البشاعة والقبح الذي لاقيته على مدى كتابة هذا الكتاب. لكني سأنقل لكم حيرة زملائي كذلك في وصفها. مسكت الزميل (عمار) يدندن مع نفسه بعد خروجنا من مزرعتها (شلون اوصفك وأنت كهرب..) سألته:

– كيف الحال زميل؟

فهم الملعون ما أقصده. ابتسم بأسنانه الظاهرة على الدوام وقال:

– زبدة.. أقسم بالكائنات أنها زبدة..!!

لم يبارح الزميل هذا الوصف لكل امرأة جميلة، لعله كان متيماً أو محروماً من الزبد طيلة حياته. ضحك (زهار). سألته:

– وأنت..؟

رد بعد أن أخذ نفساً عميقاً من سيكارته:

– غزالة.. اقسم.. أنها غزالة..!!

عاد الزميل إلى أصله الحيواني وهيامه بالغزال، لعلها غريزة جمعية داروينية..

علق غفار متفائلاً:

– أقسم أننا سنغزو العالم، ما دامت هذه المرأة معنا.

تفضلوا !! ما زال معيار الأخ للنجاح هو الغزو. أكملت أنا:

– هذه المرأة ستحرمني من الزواج..!!

ضحكوا جميعاً، لأنهم يعرفون أنني أكرر هذا التهديد لنفسي مع كل امرأة جميلة وبعد كل علاقة نسائية فاشلة كذلك.

خرج أميرنا أخيراً من سهومه:

– أرجوكم بلا إساءات. أية محاولة لوصف المرأة ستكون إساءة لها. لا تنسوا هذه الحقيقة؛ عيوننا وأحاسيسنا لم تتشبع بعد بالجمال الحقيقي.. دعونا من هذا، ولنفكر في الخطوة القادمة لعملنا.

خرجنا من لقائنا بالملكة بثلاث مفاجآت. في الأولى اقترحت علينا:

– اقترح عليكم زيارة بلدة تدعى (الصبخاوية). ثم نهضت لتجلب الخارطة لترينا المنطقة. لكن ترديدنا كلنا وبسؤال يشبه الصراخ من الدهشة :

– الصبخخخاااااوية!!!؟

جعلها تعود وهي تبتسم:

– ها أنتم تعرفون المنطقة. هذه البلدة ستوفر عليكم الكثير من الجهد. تستطيعون من هناك التنقل بسهولة بين الجمهوريات الثلاث، كذلك ستوفر لكم فيما لو أحسنتم التصرف، الكثير من المعلومات التي قد تحتاجونها قبل التحول من جمهورية إلى أخرى..

والمفاجأة الثانية كانت أكثر أهمية وفائدة لعملنا. رفعت مغلفاً كان موضوعاً على الطاولة الصغيرة قربها وسلمته إلى الأمير:

– أرجوكم أن تقبلوا هذا المبلغ، مساهمة شخصية مني في دعم مشروعكم..!!

طبعاً ذُهِلنا للمفاجأتين. كان هدفنا الأولي حين زيارتها، مجرد إعلامها بوجودنا، ثم جس نبض استعدادها للمساعدة، في أمر الحصول على غطاء أممي لنشاطنا القادم وهي العارفة بكواليس تلك المنظمات الأممية الخاصة بحماية الحيوانات والحياة البرية. كان معنا مال، إنما على قدر إمكانياتنا المتواضعة. وجدنا في المغلف الذي سلمته إلى السيد (نصار) مبلغاً قدرناه بضعف ما قدر لنا جمعه طيلة فترة عملنا، من تبرعات شخصية وغير شخصية. وقبل إعلان نيتنا على المغادرة وتوديعها، قالت وكأنها قد تذكرت الأمر الآن:

– على فكرة، قد تواجهكم رغم كل شيء عقبات هناك..!! هذه ثلاث مغلفات موجهة إلى وزراء داخلية تلك الجمهوريات.

سلمت الأمير المغلفات. ثم عانقتنا. مرة أخرى لامس خدها الناعم نعومة خدود الأطفال خدودنا.

هامش رقم 3

بلدة (الصبخاوية)

قصة هذه البلدة تشبه قصة الجمهوريات الثلاث التي تقاسمتها. بلدة ثلاثية الانتماء. الناس هم ذاتهم، بانتماءاتهم العشائرية والعائلية والدينية إنما الحدود قد قسمتهم. يتذكر ما تبقى من كبارهم، ذلك اليوم المشهود الذي دخلت فيه مفردات وسحنات شقراء تلغط برطانة غريبة، حملوا مع خيمهم التي أقاموا بها غير بعيد عن القرية، آلات وأدوات غريبة هي الأخرى، على الأخص تلك الآلة العجيبة ذات الأرجل الثلاثة، ينصبونها في مكان ويظلون ينظرون إلى نقطة ما، داخل الصندوق الأسود الكائن على رأسها، يبتعد أحدهم مسافات تطول وتقصر، بعصا تنتمي إلى جنس خشب تلك الآلة العجيبة،عندها تتحول اللغة فيما بينهم إلى إشارات وتهويمات في الفضاء المفتوح، تشبه لغة الخرسان. بعد أيام وربما أسابيع وقبل أن يغادروا مخيمهم، خططوا لهم أرض القرية بخطوط بيضاء تقاطعت في مكان ما من أرض القرية.

لم يصدق أحد منهم، أن تلك الخطوط بلونها الأبيض الهش سرعان ما ستتحول إلى سكاكين تنهش في جسد القرية، لتقطع أوصالها إرباً؛ صلة الرحم، القربى، اللغة، الدين، ثم تلك العلاقات الإنسانية التي نسجتها سنين لا أحد يعلم لها بداية. لم تكن نفوسهم ولا بيوتهم بتلك الكثرة التي تستدعي التقسيم، باستثناء كونهم كانوا مبعثرين على مساحة من الأرض قد تكفي ثلاث أو أربع قرى مماثلة تتجمع

حول عين ماء أو بئر. وكان في القرية ثلاثة آبار هي الأخرى دخلت خرائط التقسيم.

منذ تيقن الناس بانقلاب تلك الخطوط الهشة إلى أسلاك شائكة وخصومات، انتاب السكان شعور متناقض في ذاته ومع ذاته على طول الخط. شعوراً يولده تناثر أشلاء القرية على ثلاث دول مستقلة، لكل دولة علمها وجيشها ومخابراتها. يتلبس الواحد منهم شعور القرف من الانتماء لإحدى الدول تارة، وتارة أخرى يقابله أو يوازيه شعور آخر باعتزاز الانتماء للثلاث. هو ينتمي إلى ثلاث بلدان وفي ذات الوقت هو لا ينتمي إلى إحداها. الواحد منهم محروم من الجنسيات الثلاثة بتهمة تلاحقه منذ الولادة، تلك هي تهمة التبعية تارة والـ(بدون) تارة أخرى، لكنه مع ذلك يقضي عمره مطارداً بين الحدود هارباً من أداء عسكرية هذه الدولة أو تلك. المواطن موجود وغائب في نفس المكان، هو مرة وطني ابن بلد ومرة أجنبي دخيل. لكن، القرية مع ذلك قد تمردت وبطريقتها على فعلة تقسيمها المستحدثة.

هذه المعلومات التي تجمعت لدينا عن البلدة الثلاثية الانتماء (الصبخاوية)، لم نحصل عليها بمعونة ذلك الحمار الوطني – المرتد، الذي التقيناه في إحدى زرائبها المنعزلة فقط، إنما كانت لنا جهودنا الشخصية كذلك. لا تنسوا نحن الخمسة نتقاسم الانتماء إلى تلك الجمهوريات.

على أية حال، سبب لهم ذلك الشعور المتناقض في ذاته ومع ذاته، الكثير من الملابسات والعواقب التي عادة ما يردفونها بالوخيمة. على الأخص في أزمان الحروب، التي لم يندر وقوعها بين تلك الجمهوريات. وحتى بدون تلك الحروب، كانت المناوشات والأزمات مشتعلة على أطراف الحدود الثلاثة. فكر سكان تلك البلدة، لكونهم على الدوام يمثلون الخط الأمامي للحروب، أن يبتكروا الوسائل التي تجعلهم بمنأى من شظاياها، يحدوهم شعور مؤكد؛ أن تلك الحروب هي ليست حروبهم. الوسائل التي تجنبوا بها الحروب، لم تكن دون ذكاء، إنما هو ذكاء من النوع الذي يمكن وصفه بالذكاء الفطري، أنجدهم به وعيهم الجمعي وذلك الانشداد الغريزي للمكان الأول.

لعنة الحدود التي كانت تطاردهم في زمن ما، تحولت مع مرور الأيام والسنين إلى رحمة، بعد أن ازدهرت عندهم تجارة الترانزيت غير الحكومية (التهريب). تحولت بيوت القرية بأشلائها الثلاثة، إلى مخازن للاستيراد والتصدير، لكل بضاعة يبحث عنها السوق الوطني في أي من الجمهوريات الثلاث. كان الربح مضموناً. الأمر الذي دفعهم لاستثمار مساحات لا بأس بها من الأرض الخلاء خارج تجمعات البيوت، لبناء فنادق ومخازن وأسواق حديثة، بعد أن كانت الفنادق في البدء مجرد غرف في ذات البيوت يطلقون عليها غرف الضيوف. صاروا كذلك يتحكمون بالأسعار. ليس نادراً أن تأتي وفود الأسواق الداخلية من كبار التجار والصناعيين، متوسلين من أجل تعديل الأسعار.

كذلك، بقصد أو بدونه اعتاد المواطنون في الأشلاء الثلاثة، أن يكونوا عملاء دائمين لأجهزة مخابرات الدول الثلاث، بل ومخابرات العالم كله. الأمر الذي أوجد في قريتهم انتعاشاً من نوع ما، مرده ما يمكن تسميته بـ(السياحة المخابراتية). دائما هناك ثمة أجانب يبحثون عن أدلاء ووكلاء يدفعون لهم بالعملة الصعبة. في بعض المواسم (مواسم الأزمات والحروب) تغدو القرية مرتعاً للصحفيين والجواسيس والسياسيين على تلاوينهم. تتحول بكليتها إلى وكالة أنباء عالمية، تنقل آخر مستجدات الأخبار والتصاريح والنوايا والإشاعات من أطراف الحدود الثلاثة. الأمر الذي تطلب مزيداً من الاستثمار في تلك المساحات الخالية، استثمار مخابراتي خالص، لكنه كان وربما لأنه مخابراتي، مجبراً أن يتخذ من مواطني القرية في هذا الجزء أو ذاك واجهات له.

ستكون تلك الواجهات لاحقاً مشاريع أغنياء لا يشق لهم غبار في الجمهوريات الثلاث. علمتهم التجربة كيف يلعبون على حبال كثيرة، ولا يكونوا مخلصين إلا لأنفسهم ولبلدتهم (الصبخاوية). مثلما تعلموا كيف يتحولون من مجرد واجهات لا حول لها ولا قوة، إلى شخصيات مرموقة، هي من تختار العناصر المخابراتية الموضوعة بخدمتها. معلوم أن أموال المخابرات هي أموال الدولة، يحملها العنصر ويستثمر بها وهو شخصياً لا ناقة له فيها ولا جمل، وعندما يجد رجل المخابرات المسؤول عن جلب واستثمار المال، أن الواجهة الصبخاوية يكون مستعداً لاحتساب حصته من الربح المضمون،

دون عناء أو معرفة الحكومة، لا محال وبمرور الزمن سيتحول اللجام من يد إلى يد وهذا ما حصل مع مرور السنين. خصوصاً إذا علمنا أن الميزانية الوحيدة المفتوحة دون سين وجيم، وفي الجمهوريات الثلاث، هي ميزانية المخابرات ووزارات شؤون الرؤساء.

يمكن القول وبعد انتعاش عمل المجسات الاستخبارية في القرية وإثباتها المقدرة على الإنجاز، أن المنافسة قد دخلت على هذا الخط كذلك، استثمرت أجهزة المخابرات للجمهوريات الثلاثة الكثير من الأموال في بناء فنادق وأماكن لهو ومجمعات أسواق وغيرها من البنى التحتية لما يمكن تسميته بصناعة السياحة في القرية. على الرغم من أن القرية ذاتها تفتقر لأي مظهر سياحي معروف إن كان طبيعياً أو غير طبيعي.

كانت تضاريس القرية خليط جبلي كلسي صحراوي رملي، باستثناء بعض الواحات القليلة من أرض يمكن استثمارها في الزراعة الديمية لا غير. كانوا يزرعون فيها سنابل الحنطة والشعير والبرسيم. كل ما عداها، أن أرض القرية جرباء وفضاءها المحيط أجرد على مد البصر. المتمعن في طبيعتها سرعان ما يقتنع أنها هي تلك الأرض (غير ذي زرع). لذا جاء اسمها مطابقاً لطبيعتها (الصبخاوية)، خارجاً من تلافيف السباخ.

لكل تلك الأسباب، نمت وتطورت لدى أهل القرية، مهارات وخبرات لا تجدها في مدن الدواخل. ليس أخطرها القدرة على التنقل السهل

عبر حدود الدول، لتوفير ما يصعب الحصول عليه من بضائع واحتياجات، مهما بدت بعيدة المنال، مع تنامي قدرات ومهارات واضحة للعب على ثلاثة حبال أو أكثر. مهارات في الحقيقة يحسدهم عليها فطاحل التجسس.

مع مرور السنين والحوادث أفرزت القرية مبدعيها وحلالي مشاكلها، أولئك الذين جعلوا أمر كسر الممنوعات وتسويغه أمراً هيناً، سلساً، بدون عواقب وخيمة. لقد استفادوا من امتياز غير معلن منحته الجمهوريات الثلاث لمواطني القرية، هو عدم إلقاء القبض على أي من مواطنيها وزجه في السجن إلا في حالات قليلة تكاد تكون نادرة. كانت تلك نصيحة المخابرات الوطنية في كل جمهورية، بسبب أن مواطني القرية بالإضافة إلى كونهم مشاريع جاهزة للصيد من قبل الجواسيس، فهم لهذا السبب بالتحديد، يتمتعون بمواهب ومهارات اللعب المزدوج، الأمر الذي يجعل الاستفادة منهم ممكنة في كل الأحوال والظروف. من الصعب أن تجد بينهم جاسوساً شريفاً! لا بد أن يكون مزدوجاً. بهذا المدخل حصل أغلب مواطني القرية على الجنسية أخيراً، ليست جنسية واحدة، بل ثلاث في ذات الآن. مع مرور الوقت تخلصوا من عاقبة الهروب من الخدمة العسكرية الإلزامية. وفر لهم أهل الحل والعقد، وربما بمساعدة أجهزة المخابرات، طريقة يحصل بواسطتها كل حامل جنسية جديد على وثيقة تثبت أنه معفي من الخدمة الإلزامية لأسباب صحية. ظل الأمر محصوراً فقط بمواطني القرية. بدت العملية سهلة، حسب زعم

أحدهم؛ أن شروط التجنس المعفي من خدمة العلم، ثلاثة: مبلغ معلوم إلى كاتب نفوس معلوم وبواسطة مختار معلوم واترك الباقي لأهل الحل والعقد. سيتدبر هؤلاء أمرهم في غضون أسابيع قليلة، وربما أيام حسب حجم المبلغ، تحصل على شهادة مواطنتك الجديدة مع شهادة تكميلية تفيد أنك معوق رسمي.

تلك الامتيازات التي حصل عليها مواطنو بلدة (الصبخاوية)، هي بالتأكيد امتيازات استثنائية من حقهم التفاخر بها، وعلى خطورتها التي تولد لديهم شكلاً من إحساس كوسموبوليتي، تنتمي إلى دولة ولا تنتمي إليها. خصوصاً وأن بعضهم أخذ يبالغ بكوسموبوليتيته وهو يدعي إن بإمكانه، بل من حقه الحصول على أي جنسية في العالم، لأنه مواطن عالمي..!! ، لكن ذلك البعض لم تكن نيته صافية تماماً في كوسموبوليتيته، إنما تغلفها أو تسيرها نوع من ضغينة يحملها في قلبه للجمهوريات الثلاث، كره، حقد، عداء. أولئك نوع من بشر متمردون على كل القوانين المعروفة وغير المعروفة داخل أسوار الجمهوريات الثلاث، لا يقتنعون بشيء، أنت حتى لو سلمت معهم، وأعطيتهم كل جنسيات الكرة الأرضية، ستجدهم يرفعون رؤوسهم إلى السماء، بأوهام جديدة، من نوع؛ لماذا لا نحاول الحصول على جنسيات إضافية من المريخ مثلاً، أو الزهرة، لماذا هذا الضيق والتقيد بهذه الكرة البائسة التي أسمها الأرض، لنخرج من أسار هذا السجن الأرضي البائس. كما قلت هم

نوع من بشر، قلب الواحد منهم مثل جرة مثقوبة لا يجري فيها غير الكره للجمهوريات الثلاث مجتمعة.

هذا لا يعني أن أهل القرية هم على الدوام سعداء بالحروب، على العكس، الحروب كانت تتسبب لهم بالكثير من المشاكل التجارية والنفسية، جراء شحة البضائع وربما انقطاعها الكامل. مع أن القرية وفي اتفاق مخابراتي غير معلن، تظل خارج الحرب، لا تصلها جبهات القتال. لأن الثلاث هم بحاجة لها، يتركونها رئة استخباراتية لا غنى عنها، لمتطلبات العمل العسكري على الجبهات الأخرى. لكن أجواء الحروب تظل هي ذاتها، إن كانت بعيدة أو قريبة، أخبار القتل والدمار والخسائر، أخبار غير سارة لأحد. ينعكس هذا على ملامح الناس، في ردود أفعالهم، في طريقة قضائهم لحاجاتهم، في علاقاتهم مع بعضهم ومع الغرباء.

لم يعننا كثيراً كشف سر القرية، أو تفسير ولاءات البشر والحيوان فيها بين وطني وعميل. قررنا إهمال عملية الخوض في تلك التفاصيل، لارتباطنا بالتزام مسبق، أن نهمل كل ما يخص البشر من شؤون، باستثناء طبعاً تلك الشؤون التي تتداخل مع الحمير. ما زلنا جماعة صغيرة لها حسادها وربما خصومها. صحيح أننا لم ولن نعادي أحداً، لكن هذا لا يعني أن أحداً لن يعادينا، ما زلنا بشراً ونعرف أشباهنا إن لم يجدوا من يخاصموه سيخاصمون أنفسهم. سأطلعكم فقط على ما مصرح لي الإعلان عنه.

قادتنا خطواتنا الأولى في أول جمهورية تطأها أقدامنا، إلى جولة تطبيقية لاستكمال بعض البحوث. هذا ما صرحنا به للسيد وزير داخلية تلك الجمهورية، لكننا كنا نضمر هدفاً آخر، هو تتبع خطوات مسيرة ذلك الحمار الذي دار حوله اللغط والانقسام في الرأي العام، الحمار الوطني – المرتد. علمنا أنه قد عبر الحدود، لكن أي حدود..؟ هذا ما كنا نبحث عنه. زرنا زرائب مختارة، ذهبنا إلى البراري البعيدة، دخلنا إلى الأسواق، قصدنا حديقة الحيوان. قررنا أن لا نفوت أية فرصة يمكن أن تنفع عملنا. حتى أننا ومن خلال تلك الزيارات نسجنا وشائجاً مع كثير من الحمير. اشتغلنا على مقارنات بين ما تفرزه الراحة والدلال وما يفرزه الكدح والحرمان، من آثار يمكن أن تعلّم سلوك هذا أو ذاك من الحمير. أخيراً، تجمعت لدينا خيوط رحلة الحمار الوطني – العميل. ويا لغرابة الصدف.. أو محاسنها؟ أن كل الخيوط كانت تشير إلى بلدة (الصبخاوية). نعم، البلدة ذاتها التي أوصتنا بزيارتها صديقتنا الثروة القومية لبلدها. الأمر الذي سبب لنا بعض التشوش وطرح الأسئلة؛ يا ترى هل كانت تعلم تلك التحفة الفنية بمشروعنا الفعلي..؟ مع أننا لم نخبرها به، لقد أخبرناها بشكل عام، لم نتكلم حول ذلك الحمار. هل معرفتها بوزراء داخلية هذه الجمهوريات كان يوفر لها المعلومات الدقيقة..؟ وهل سبق لتلك الزبدة على حد وصف زميلنا (عمار) أن زارت (الصبخاوية) ومكثت فيها..؟ (الصبخاوية) على الأرض وليست تلك البلدة الموضوع أمام اسمها نقطة سوداء صغيرة

فـي تقـاطع خطـوط علـى الخارطـة. هـذه الأسـئلة وغيرهـا حملناهـا وقصـدنا تلـك القريـة التـي غـدت هـدفنا بطلسـميتها وتواجـد حمارنـا المختار فيها. رغم معرفتنا بأجواء الحرب والفوضى والخطورة التي ستجلبها أية خطوة غير مدروسة، خصوصاً في مثل تلك البلدة المسلطة عليها عدسات مكبرة لكل أجهزة استخبارات العالم، لكننا تحركنا بحثاً عن ذلك الحمار.

كان في سوق البلدة بناءً مربعاً وكبيراً، يسحب الغرباء إلى جوفه كما المغناطيس. خُطت على واجهة البناء يافطة بحروف ناشزة، كأنها على عراك مع بعضها ومع اللوحة، تقول: هنا استراحة الملوك..!! لا ندري شيئاً عن حيثيات تلك الاستراحة وهل هي فعلاً قد استضافت ملكاً في حياتها، أم هي ما زالت تنتظر تلك الزيارة الميمونة..؟ لكنها؛ كانت المكان الوحيد الذي تآلفنا معه خلال وجودنا هناك. كان فيها كل الأشياء التي تحتاج أو لا تحتاج إليها. هي المطعم والدكان والمقهى والبورصة ومحل التصريف والمكاتب الصحفية وصالة الألعاب والحمامات وربما ليس أخيراً هي ملتقى الجواسيس وعملائهم. حتى أن عمالها ربما وبسبب كل تلك المهام التي أخذتها الاستراحة على عاتقها، كانوا يتقنون الكثير من اللغات المتداولة إن كانت في المناطق المجاورة أو العالمية منها، إلى جانب مهارات طبخية فريدة، حيث الاستعداد لتجهيز أية طبخة تخطر في بالك تحت مسمى (أكلات خاصة)، يجري إعدادها حسب الطلب والتعليمات لكل زبون. هذا، إضافة إلى المعروض

من المأكولات في الحاويات الزجاجية. في استراحة الملوك أنت لا تحير.

كانت الاستراحة تستضيفنا في اليوم ثلاث مرات، هي وجبات الأكل. كنا بعد كل جولة من التوهان في دروب البلدة وبريتها، لا نشعر إلا وأقدامنا تسحلنا سحلاً إلى استراحة الملوك. حتى أننا استطعنا بشكل من الأشكال، أن ننسج علاقة مع أحد العمال الشباب. وهو الشخص الوحيد الذي أطلعناه على مشروعنا من زيارة البلدة، وطلبنا مساعدته. رغم أننا كنا حريصين، خلال وجودنا على عدم الدخول في علاقات زائدة مع المحيط الغريب علينا. وكما توقعنا لم يخيب ذلك الشاب رجاءنا. لم يتعامل معنا بارتياب على عادة سكان البلدة مع الغرباء. تعامل مع سؤالنا كأي سؤال عادي يُطرَح عشرات المرات في اليوم الواحد. وحتى دون أن يسأل عن ماذا نريد من ذلك الحمار. قال:

– طلبكم تجدونه عند شيخ المهربين..!!

نظرنا إلى حيث أشار بإصبعه إلى شيخ المهربين. كان في الزاوية البعيدة شخص هو اقرب إلى الشباب منه إلى الشيخوخة. كان صافناً على منفضة السكاير أمامه، لكنه لم يكن يدخن. كانت حيرتنا في البدء؛ في الكيفية التي سنقطع بها صفنته أو وحدته، ومن ثم ما هي الجملة الاستهلالية، التي ستأتي بعد السلام والتحيات والتي ستكون كفيلة بجر كل الكلام وراءها. بالمناسبة، من عيوبنا الكثيرة، عيب لا يغتفر، أننا نفتقر إلى ما يدعى باللباقة أو

الأتيتيك في العلاقات الاجتماعية. معلوم، أن لكل حالة سلوك خاص بها وعبارات خاصة على الواحد أن يتقنها، وإلا سيتحول إلى نشاز، شخص غريب يستجلب المراقبة والمتابعة وربما حتى الاستهجان، خصوصاً في هذه البلدة. لقد اعتدنا في حياتنا الخاصة والعامة، على الدخول في موضوعنا مباشرة، دون استخدام أية وسائل زائدة أو نعتقد أنها زائدة، من حركات وغمزات وإشارات وجمل جاهزة وغيرها من تلك المستخدمة في العلاقات بين الناس في هذه المنطقة. جزء من السبب يعود إلى مكوثنا طويلاً، في بلاد لا تحب العلاقات والسلوكيات الزائدة. أو ربما هو طبع شخصي كان من بين أمور كثيرة جمعنا مع بعض وجعل علاقاتنا بتلك المتانة.

كنا نداور فيما بيننا؛ ما هي العبارة الاستهلالية التي سنقولها قبل الدخول في الموضوع مع ذلك الشيخ الشاب. ورغم كثرة المداورة والتفكير فيما يجب وما لا يجب، وجدنا أنفسنا نبدأ الاتصال بخطأ شنيع كاد ينسف المهمة برمتها. لأننا دهمنا وحدة الرجل بشكل فج، وجدنا أنفسنا ودون ما اتفاق مسبق، نتوجه إلى زاويته بشكل جماعي. طرحنا عليه التحية وكأننا نردد نشيداً مدرسياً. هكذا على حين غرة، صرنا فوق رأسه ثم توزعنا الكراسي حول طاولته وجلسنا. لقد فز الرجل. واضح أنه كان في شوط بعيد من أشواط الصفنة. كان من الأفضل لو تركنا الأمير يتعامل معه منفرداً وكان هذا خطأنا الأول. أما الثاني فكان هو الأخطر، لأن أميرنا فاجأه بدون

مقدمات وقبل أن يسترد أنفاسه بعد من صدمة الدهم، بهذا السؤال الاستفزازي:

– حضرتك تعمل في التهريب..!!؟

المشهد بكامله أشار إلى مفرزة أمن دهمت مشتبهاً به. لكن خبرة الرجل وتمرسه في مقالب المهنة، جعله يسترد رباطة جأشه سريعاً. سحب له نفساً طويلاً من سيكارة وهمية ثم زفره باتجاه المنفضة التي كانت على ما يبدو هي موضوع صفنته. قال:

– اليوم الله يشهد ومنذ صياح الديكة.. وأنا متشائم من هذا اليوم الزفر.

ولما لم يرد عليه أحدنا، لأننا اكتفينا بالبحلقة بعيون بعضنا، خصوصاً وقد شعرنا جميعاً بخطلنا وليس فقط خطئنا. في الواقع، أن ما فعلناه وقلناه لا يقوله ويفعله أغشم واحد في هذه البرية. واصل شيخ المهربين متحدثاً مع المنفضة:

– طيب. ألم يقولوا أن الحكومة انهارت والدولة انهارت والدنيا كلها انهارت..؟

ثم أخذ يحوقل ويستعوذ مع نفسه. أما رد فعلنا فما زال هو ذاته، الذهول من هول ما فعلناه والحيرة في البحث عن جملة نصلح بها ما خرب. ظل يحوقل ويستعوذ بينه وبين منفضته. وبعد وقت بدا طويلاً، رفع رأسه أخيراً وصار يحدق بوجوهنا كمن يكتشفنا تواً. ثم سأل:

– تفضلوا..! أمر.. خدمة..؟

تململ أميرنا في مقعده، ثم تنحنح، لكن بدا على ملامحه أنه وجدها. قال بهدوء:

– أرجوك أن تغفر لنا عدم معرفتنا بهذه الشؤون..

– أي شؤون..؟

– أقصد.. أننا عرفنا من عامل المطعم؛ أنك شيخ المهربين، رغم أن هذا غير واضح، لأنك ما زلت شاباً ما شاء الله..

واضح أن الأمير يحاول المداهنة لتليين حدة غضبه. واصل:

– نحن يا سيدي في الحقيقة نبحث عن... عن... عن..

بدخول أميرنا في العنعنة، تأكدنا أنه قد أضاع اسم الحمار الذين كنا نبحث عنه. عاد من جديد إلى المداهنة والتليين:

– مرة أخرى لا تؤاخذنا.. وإن كنا قد تسببنا بأي إزعاج، سننسحب ونتركك بأمان الله..

لم تزل ملامح العبوس والتجهم تشكل خارطة وجه شيخ المهربين، بتجاعيد وخطوط القرف من شيء، لا يدري هل هو أمامه أم في مكان ما من ذاكرته. لكنه هدأ قليلاً، أو على الأقل صار يكلمنا ولا يكلم المنفضة. سأل:

– كم رأس..؟

بالطبع مع فجاءة السؤال، لم نفهم ماذا قصد بـ(كم رأس). طلب منه الأمير:

– أرجوك يا سيدي أن تكلمنا بلغة مفهومة. ماذا تقصد بـ(كم رأس)..؟

أوضح:

– بالطبع لم أقصد كم رأس بصل، قصدت كم رأس من البشر تريدون تهريبهم.. وإلى أين..؟

أجابه أميرنا:

– ولا واحد..!!

التفت المهرب التفاتات جانبية وكأنه يبحث عن ذلك الشيء الذي يسبب له القرف والاشمئزاز. بصق على الأرض. زفر نفساً مسموعاً من الهواء. ثم أخذ يتحدث بصوت عال وبإصبعه الشاهد مع بقاء عيونه غير المستقرة تبحث عن ذلك الشيء الغامض:

– اسمعوني جيداً! أنا لم أتناول فطوري بعد.. ولم أشرب قهوتي.. ولم أدخن.. يعني روحي الآن صاعدة إلى مناخيري.. إذا تماديتم في السخرية معي أكثر.. سترون مني ما لا يرضيكم. أنا أحذركم!!

ثم أدار رأسه إلى حيث عمال المطعم خلف البوفيه. وصرخ بصوت عال:

– أين هذا..!؟

ولما لم يجبه أحد، عاد إلينا:

– الحق ليس عليكم.. بل على هذا البطيخ الذي دلكم علي..!!

قصد بالبطيخ عامل المطعم. ولا أدري لماذا الناس يحقرون البطيخ في تلك البرية ويجعلونه شتيمة، رغم أنه لذيذ وهم يأكلونه بشراهة. على أية حال ومع تصاعد انفعال المهرب وغضبه علينا وعلى عامل المطعم البطيخ. بدا لنا الأمر وكأننا فقدنا رأس الخيط الذي

كنا نبحث عنه. خصوصاً وأن الزميل (غفار) صار يتململ في مقعده، وشوهدت عروق رقبته تحتقن بالدماء، وهذه كانت علامة الحمرنة التي سيدخلها ويدخلنا معه فيها. قام من مقعده ووجه إصبعه إلى المهرب، صارخاً بأعلى من صوت المهرب:

– اسمع أنت..!! أنا أحذرك.. انزل هذا الإصبع وأنت تتحدث معنا.. فهمت..!!؟

قالها بصيغة أمر حاسم. حتى أن المهرب نفذ الأمر على الفور، دون أن يفهم فحوى القضية. في الحقيقة، هذه واحدة من عيوب الزميل (غفار)، يدخل في الحمرنة على الفور مع كل شخص يحدثه باستخدام الإصبع، يظل يعاند ويجادل ويتعصب لمجرد إغاضة الطرف صاحب الإصبع. ولكثرة تكراره لرد الفعل هذا، صار جزءاً من تركيبته السلوكية التي تتحكم بكامل ردود أفعاله. لذلك كنا نحن أصدقاؤه حتى قبل تشكيل الجماعة، حريصين أشد الحرص على إبعاد الإصبع في الحوار معه، حتى في الحالات التي تتطلب استخدام الإصبع، كأن تكون مضطراً للإشارة إلى شيء، كنا مع الزميل (غفار) نستخدم كامل الكف للإشارة إلى ذلك الشيء. أخبرنا هو؛ أنه ورث هذه العادة عن أبيه وذاك عن جده وجده عن أجداده البعيدين. واضح أنهم سلالة يستفزها الإصبع، أو لنقل أن لديهم حساسية وراثية مفرطة من استخدام الإصبع في الحوار. ولعل ما قاله مازحاً في إحدى جلسات الكأس: أننا نسعى لبناء عالم بلا إصبع..!! لعل ذاك كان حقيقة يسعى لها هو وعائلته. لكن ذلك

الحلم الطوباوي، لم يكن هو شأننا في تلك الاستراحة الصبخاوية الملوكية، ليبني أو لا يبني ذلك العالم الخالي من الإصبع. ما كان يهمنا هو كيف الدخول إلى عالم المهرب. قام (زهار) على الفور وانتشل (غفار) من كرسيه:

– تعال معي..!!

كذلك استخدم صيغة الأمر. استجاب (غفار) للأمر بانقياد عجيب. في الحقيقة كان (زهار) على طول الخط هو بمثابة (طفاية) حريق لحمرنة (غفار) الإصبعية. قام الاثنان وابتعدا عن طاولة المفاوضات المستعصية. وبعد أن تأكد الأمير من ابتعاد (غفار)، تكلم مع المهرب بصوت هادىء مشوب بابتسامة خفيفة مع نبرة توسل:

– أرجوك اهدأ وحاول أن تفهمنا. أنت سألتنا عن بشر نهربهم. نحن لا نريد أن نهرب بشراً.

صفن المهرب قليلاً. في الحقيقة هو عاد إلى المنفضة يدورها بيده. زفر ما تبقى من اشمئزاز في صدره، وحاول أن يكون هادئاً. سأل:

– طيب. قولوا ماذا تريدون أن تهربوا خارج الحدود.. أخشى أن تقولوا لي أنكم تريدون تهريب حمير..!!

رد أمير جماعتنا بسرعة هذه المرة، إنما بهدوء وتروي وبعيون مثبتة في عيون المهرب، وفوق كل ذاك مستخدما إصبعه الطويل، لقد اطمأن بعد مغادرة (غفار) للجلسة:

– بالضبط. أنه حمار.

بدا المهرب غير مصدق، بل ما زال على قناعته الأولى؛ أن في الأمر كله مسحة من السخرية أو اللعب عليه من قبلنا. هوم بيديه تهويمة عشوائية، وضحك تلك الضحكة التي تشعرك أنه يضحك في عبه. لكننا سمعناه يردد مع نفسه:

– حمار..!! هذه آخرتها.. هربت سيارات.. أسلحة.. نسوان.. رجال.. أطفال.. تاليها.. اهرب حمير..!!؟

تدخلت أنا لأول مرة، بوصفي الناطق الرسمي أو الوجه الدبلوماسي، محاولاً إنقاذ المهمة من الفشل:

– أيها السيد نحن ناس محترمون، أرجوك أن تتحدث معنا باحترام وحاول أن تفهمنا. أنت تهرب بشراً وبضائع وما إلى ذلك. هذا هو عملك، أليس كذلك؟ طيب ما يضيرك لو هربت حماراً خارج هذه البلاد..!؟

ضحك المهرب. ما زال غير مصدق. حرك يديه بطريقة عشوائية دلالة على عدم الفهم. ما زال يتكلم وكأنه يحدث نفسه أو المنفضة التي أمامه. لكن الواضح أن فضوله في تصاعد لمعرفة من نكون. قال، وبدا عليه أنه يريد تعجيزنا:

– طيب. أنا آخذ على الرأس 250 صبخي، لكن على الحمير الوضع مختلف.. أطلب 500 صبخي. على أن يدفع لي المبلغ فوراً..!!

ظلت عيونه تراقب ردود أفعالنا ومعها حيرتنا تجاه ما طلبه. أدخلنا الرقم في حسابات تحويل العملة من أصفر إلى أحمر إلى أخضر

إلى صبخي.. تبين لنا أن المبلغ الذي طلبه كبير، بل مبالغ فيه. وفي محاولة منه للتأكد من مدى إصرارنا على ما نريد، أو مدى أهمية ما نريد فعله. أردف:

– أنا طول عمري يدي نظيفة. كل ما هربته في حياتي كان في خدمة الناس، لم أهرب حشيشة أو حمير، خصوصاً وأنا أرى وأسمع ما تفعله الحمير في حياة الناس. أقول لكم؛ ابحثوا عن شخص غيري..!!

سأل (الأمير):

– لكن، لماذا لا تعتبره رأساً كغيره من الرؤوس؟

واضح أن أميرنا انسجم سريعاً مع مصطلحات السوق. وفي محاولة مني لدعم موقفه التفاوضي. أوضحت:

– ثم أننا يا سيدي لدينا..

لم يدعني الأمير أكمل، وضع كامل كفه بوجهي طالباً مني السكوت. عرف ماذا أريد أن أقول. أردت القول أن لدينا توصية من السيد وزير الداخلية. لكني مع الكف الطويل الذي نط بوجهي تذكرت حالاً؛ أن مفعول التوصية والذي كانت له أهمية استثنائية في عملنا فيما مضى، قد تبخر ولم يعد يعن أحداً..! لأن السيد وزير الداخلية ورئيسه وكل حكومته هم الآن في قبضة القوات التي غزت البلد. ثم أوضح هو للمهرب بهدوء:

– أراد زميلي القول؛ أن الحمار الذي نريد أن نهربه هو عائد لك. نعم. أنه موجود الآن في إحدى زرائبك. التقينا به دون علمك

وأجرينا عليه بعض البحوث. لكننا، نحتاج عدة أيام أخرى لإجراء المزيد. بعد ذلك نسلمك حق الحمار زائداً ما نتفق عليه الآن من ثمن لتهريبه.

أفرغ المهرب فمه مما تبقى من ضحك، وعادت ملامحه إلى الجد. بل، أن انعطافة مهمة طرأت على كامل سلوكه معنا. غير واضح سببها بالضبط، لعل السبب أن الأمير نطق بمفردة (بحوث) أو الثقة التي تعاملنا بها معه، باستعدادنا لإعطائه مبلغ شراء الحمار زائداً ما نتفق عليه من ثمن التهريب.. أو هي أسباب أخرى. سمعناه ينطق فجأة وبملامح بشوشة هذه المرة:

– أخوان! أنا أدعوكم لضيافتي في بيتي. أريد أن اسمع قصتكم كاملة. ومن الآن أنا متبرع بالحمار وسأوصله مجاناً لكم. لكن ليس قبل أن تعلموني بقصتكم. من أنتم..؟

صرنا نتطلع في وجوه بعضنا، ونبحث عن الجواب. خلال هذه الأثناء، استطاع أمير جماعتنا، أن يتدارك هذا الموقف المفاجئ المنتقل من ضفة إلى أخرى، إذ عاد إلى رزانته وحديثه الهادئ الممنطق. رد على المهرب:

– نحن نعتبر هذه فرصة للتعارف فيما بيننا وربما للتعاون مستقبلاً. سنأتي معك، لكن أخشى أن لا تفهمنا تماماً.

رفع المهرب إصبعه بالجواب:

– بل سأفهمكم. وسأكون سعيداً بمساعدتكم. واضح أنكم لستم لصوصاً، ولا مجاهدين ولا جواسيس.. أجدكم مشغولين بهدف أبعد

بكثير من قدرة خيالي على تصوره.. لذلك أريد أن أعرف.. قبل أن أُوفي لكم بعهدي. تفضلوا معي!

لقد تحقق هدفنا أخيراً، ليس فقط بالعثور على الحمار المدعو ب– (ذو الوشم).. أو الحمار الوطني – المرتد، وإنما العثور على من يقف بجانبنا ويؤمن لنا الأجواء المطلوبة لإجراء تجاربنا وبحوثنا.

كان تعارفنا مع الحمار قد حصل قبل تعرفنا على صاحبه. بعد أيام من وصولنا بلدة (الصبخاوية)، عثرنا على زريبة بدت منعزلة نسبياً، لأننا تركنا خلفنا القرية بأسواقها وفنادقها الاستخباراتية ذات الخمسة نجوم. شاهدنا هناك حماراً هزيلاً ووسخاً بشكل واضح. لم تزل آثار جروح وتشققات وكدمات كثيرة منتشرة على طول جسده. بدا لنا أنه مريض ومن المحتمل بعد أن ييأس صاحب الزريبة منه، يطلقه في البرية يلاقي حتفه هناك بعيداً عن القرية. راقبنا سلوكه بضعة ساعات ورأينا الوشم الشهير. وجدناه، قد صفن على مشهد دجاجة تأكل من فضلاتها. دامت صفنته على ذلك المشهد أكثر من ساعتين. خرج منها بنهيق شديد، غير معتاد، على الأقل لنا. لم يكتف بذلك، بل صار يركض بشكل دائري داخل محيط الزريبة ويرفس في الهواء، كأنه يرفس أعداءً غير مرئيين لنا، محيطين به ويحاولون النيل منه. ثم أنهى المشهد بآخر عملية محببة للحمير قاطبة، عملية (التبرغث) على التراب، مرغ كل جسده بالتراب متقلباً من جنب إلى آخر. بهذه العملية التي تبدو للمتابع لها من البشر أنها نوع من لعب، لكن الحقيقة أن الحمار كان يطبب بها جروحه

الجديدة ويحك القديمة منها. يظل التراب مستودع دواء الحيوانات منذ الأزل، لتوافره على عناصر ومعادن كثيرة دخلت بشكل متأخر في صناعة الأدوية. كان الحمار منزعجاً أشد الانزعاج ويائساً إلى حدود يمكن أن يقدم معها على الانتحار. أثار كل ذلك لدينا الكثير من الأسئلة؛ لماذا تفاعل صاحبنا مع ذلك المشهد بالتحديد على تلك الشاكلة؟ ماذا يعني أن تأكل الدجاجة من غائطها..؟ هذا فعل يكاد يكون طبيعياً، للكثير من الحيوانات التي تحرم من غذائها الأصلي، في بيئة لم يجد فيها الإنسان ذاته ما يأكله. تأكل الحيوانات من غائطها أو من غائط غيرها، تجد فيه بقايا من فضلات، هو أفضل لها من اللاشيء، أفضل من ترك الهواء يدخل من الفم ليخرج من المؤخرة. إذن ما وجه ذلك الاحتجاج الاستثنائي؟ اتفقنا جميعاً بالعيون وتشنيف الآذان أن في الأمر ثمة سر. أن تضع لكل حدث غريب سراً، ثم تشبعه بحثاً لتكتشف السر، هو من أسباب تطور البحوث وهو أمر ينبع من الطبيعة الشكاكة للبشر.

داومنا على مدى أسبوع نتردد على تلك الزريبة، نبحث في سر ذلك الحمار الهزيل. كل يوم نخلص باستنتاجات تدخلنا بأسرار ومتاهات وسراديب جديدة. لحسن حظنا كان الحمار من النوع الثرثار. ربما لطول حبسه، أو لشدة مصيبته كان محباً للفضفضة ويعشق الدخول في التفاصيل، حتى وصفته أنا بكل تلقائية:

– هذا الحمار من فصيلة الروائيين.

جلب انتباهي اهتمامه الشديد بالتفاصيل الصغيرة، وهذا ديدن كتاب الرواية.

رد علي الزميل (عمار):

– لعله ينتمي إلى واحدة من حظائر تاريخ الرواية..

أراد الغمز من قناة أمير جماعتنا، الذي قال يوماً: أن أحد النقاد وصف حمار الألماني (ديبرون) أنه ينتمي إلى واحدة من أرقى حظائر تاريخ الفلسفة..

لم يرد عليه الأمير. إنما علق السيد (غفار):

– في كل الأحوال، هو لا يشبه الحمار الغبي في الموروث الشعبي.

سمعنا الأمير يقول وكأنه يحدث نفسه:

– المصائب التي حلت على رأس هذا الحمار، لو حلت على رأس بشري ستجعله واحداً من أثنين: أما شاعراً أو مجنوناً.

– وهل الاختزال أو التعبير عن الآلام الكبرى مقتصر على الشعراء؟

سألت أنا بقصدية هذه المرة، محاولاً الانحياز إلى فصيلتي. رد أميرنا بعد صفنة قصيرة:

– أظن أن الشاعر أقدر من غيره على الحفر عميقاً. حفريات الشاعر لا نهاية لها، هو يحاول الوصول ليس إلى الماهية بل إلى ماهية الماهية وما وراء الماهية.

انتظر قليلاً، وإذ وجدني لم أعلق، واصل:

– لهذا في الغالب يكون الشعراء غير مفهومين. أما الروائيون – التفت لي– فأقصى ما يبلغونه من حفرياتهم هو ذلك الغلاف المحيط بالجوهر الدفين، يحدث هذا لأنكم منشدون إلى قارئ يريد أن يفهم..

أردت القول أن ذلك غير دقيق، بدليل الاختراقات الكبيرة التي قام بها روائيون تجريبيون، ركنوا القارئ في آخر حيز من اهتمامهم، بل حتى خارج اهتمامهم. لكنني عدلت عن الرد، مؤجلاً إياه إلى مناسبة أخرى. كنا جميعاً متعبين ونبحث عن مكان نمارس فيه صفنتنا اليومية. بعد كل ذلك البوح الغريب لا محيد عن صفنة طويلة. اتخذنا من ظل الزريبة الخارجي مرتعاً لاستراحتنا. أن تراقب حماراً في عز الظهيرة التموزية لأكثر من ثلاث ساعات وفي برية مثل برية (الصبخاوية)، هي مهمة شاقة في كل المقاييس، ما بالك إذا كان الحمار من النوع الاستثنائي والمولع بالتفاصيل صغيرها وكبيرها.

بعد الانتهاء من فريضة الصفنة اليومية، علينا أن نعقد اجتماعاً مهنياً في غرفتنا من الفندق، نتداول فيه شؤون الترجمة، كل يدلو بدلوه مما وصل أسماعه وحواسه مما أراد قوله ذلك الحمار. بصفتي كاتب الجماعة، سأقوم بمهمة التدوين. عملي على شيء من المشقة والجهد، لكني أحب مواصلته، وجدته قد أضاف لمعلوماتي الكثير. كان السرد ممتعاً، إلا أن المشقة كانت في الترجمة. صحيح أننا توصلنا إلى (حجر رشيد) نا في فك شفرة الصوت، وفهمنا شيئاً من

لغة العيون والآذان ومقدمات وتوالي الصفنة، لكن هذا كله غير كافي لمعرفة كل تفاصيل الإيحاءات والإشارات. استعمل الحمار لغة الجسد أكثر من الصوت. بالضبط الموضع الذي ما زلنا غير متمكنين منه تماماً. إنما براعة الزميل (عمار) وهو ينصت إلى نهيق الحمار المتعالي طولاً وعرضاً في بدايات السرد، سدت الكثير من فراغات الترجمة التي أنجزتها فيما بعد.

دخلت صفنتي في ذلك النهار على وقع جملة كررها الحمار كثيراً في بدايات السرد. جملة قصيرة، بدت غير مفهومة في البدء، إنما توضحت رويداً رويداً وهو يواصل بوحه المغمس بآلام جسدية وغير جسدية. كانت تلك الجملة هي مفتاح الدخول إلى عالمه المكتظ بالأحداث والمفارقات وبالكثير من وقائع كواليس البشر الخلفية، تلك المسكوت عنها وغير المسموح التصريح بها مهما كانت الدواعي. لذلك سوف اقتصد في سردي لما قاله. سأدون ثلاثة شهادات فقط، من بين كل ذلك الكدس الفضائحي من سلوك البشر. هذه كانت توصية مجلس شورى الجماعة لي وأنا أهم بالكتابة. الذي يهمنا في الوقت الحاضر، هو توطيد أقدام جماعتنا في عالم الأحزاب والتجمعات والجماعات، لنقوي حضورنا أولاً، فيما بعد حتماً سيحين وقت نشر الغسيل كله دون ما مواربة أو مجاملة أو خوف. أما الآن.. لا. هناك من يترصدنا. وهم إلى ذلك ما زالوا أقوياء يستندون إلى موروث ومحروث تاريخي من الصعب اختراقه.

كانت الجملة مدار صفنتي، هي ذاتها الجملة الاستهلالية لبوح الحمار:

– آه من هذه الحيوانة الجميلة!

قالها الحمار حين دهمنا وحدته، بصيغة لم نفهم منها إن كانت موجهة لنا أم هي رد على سؤال يدور في أعماقه أصلاً. عاود قول العبارة من جديد كأنه كان متولهاً بتلك الحيوانة الجميلة. فهمنا أنه كان يقصد تلك الدجاجة الجميلة. لذلك حاول أميرنا إفهامه:

– دعك من أمر هذه الحيوانة يا صديقنا وفرج عن نفسك بالبوح! كان نهيقك موجعاً، قاسياً، على كل من استمع لك.

هز الحمار رأسه أفقياً ثم عمودياً. فهمنا أنه سخر من أميرنا. عبّر:

– كيف أتركها وهي كانت سر صفنتي ومحتواها وهي منذ بضعة أيام غدت سر عذابي.

علق السيد (زهار):

– يا لهذه الحيوانة اللعينة!

ودخل على خط إقناع الحمار بترك الدجاجة لحالها:

– طيب أفصح لنا عن سر عذابك. قضيت عمرك في خدمة البشر ألم تتعلم من خبرتهم في التفريغ والتنفيس عن همومهم.. أننا أصدقاء لك.. حاول أن تثق بنا!

عاد الحمار إلى عادة هز الرأس عمودياً وأفقياً. ما زال يسخر من عدم فهمنا لما يقول. قال:

– لا بوح عندي ولا أنتم تحزنون، ما دامت هذه الحيوانة تتخطى أمامي وتسخر من عذاباتي.

وعده السيد (نصار) بإبعاد الحيوانة الجميلة. فهم (غفار) أن عليه تنفيذ المهمة، كان هو الأقرب إلى موضع الدجاجة، المنهمكة في البحث عن فضلات هنا وهناك: كانت الدجاجة إضافة إلى جمال ريشها القزحي عنيدة كذلك، ما أن يبعدها مسافة ويعود حتى تعود قبله، كأنها تتعمد مناكفة الحمار ومناكفتنا معه. أخيراً قرر (غفار) إتباع الحل الراديكالي. حاصرها في زاوية الزريبة ومسكها من ساقيها. ملأ وقيقها المكان بالصخب وهي ترفس الهواء برأسها وأجنحتها. صار يلوح بها أمام عيني الحمار الحزينتين:

– سأخلصك منها إلى الأبد.

رازه الأمير غاضباً. فهم الزميل وأوضح:

– قصدت؛ نشتريها لعشاء الليلة.

أخذها إلى قفص فارغ كان معداً على مسافة من الزريبة. قفل عليها وعاد. عندها فقط انفرجت أسارير الحمار وقرر البوح.

لقد زودنا البوح الحماري بالكثير من المعلومات التي ستخدم عملنا المستقبلي. كانت رواية طويلة عن سيرته منذ يفاعته النشوانة الرهوانة حتى كهولته البائسة في تلك الزريبة، مغمسة بصدق وبراءة الحمير. جعلتنا نتعمق أبعد من ذي قبل، في مدى الظلم الذي لحق به وبالحمير عامة، لا لذنب اقترفوه سوى كونهم موقوفين لخدمة

البشر. ما رسخ القناعة بقرارنا المبدئي في التزام جانب الحمير والدفاع عنها.

الأمر البارز الذي خرجنا به في تلك الأمسية؛ أن مشاعر الحنين الجياشة للموطن الأول هي التي جعلته يجاهد ألا يموت في تلك الزريبة. رغم كل التداعي وعوامل الفناء التي تزحف على جسده وروحه. بدا لنا في آخر سرده أشبه بالمتوسل بنا، مصرحاً برغبته العودة إلى زريبة محددة تقع خارج حدود الجمهورية، زريبة الصبا واليفاعة والذكريات. من وصفه لها، علمنا بأي موضع خلف الحدود تقع. لذلك كنا بحاجة إلى من يوصله إليها.

هام على وجهه وتناقلته المنافي والبراري والزرائب على مساحة ثلاث جمهوريات. تشبه قصته من بعض الأوجه قصص المنفيين السياسيين من البشر، سواء أولئك الذين نفوا أنفسهم بأنفسهم لقناعات وأفكار تلبستهم وحرمتهم حتى النوم في أرض الصبا والميلاد أو الذين تم نفيهم رغماً عن أنوفهم. أقول رغما عن أنوفهم مع أنني لم أفهم والله العظيم ولحد الآن، لماذا اعتاد معشر البشر أن يحشروا الأنوف دون غيرها من أعضاء الجسم، في كل ما له علاقة بالإرغام.. يقولون مرغ أنفه بالوحل.. وكسر أنفه.. وغيرها.. رغم أن الحمار كل يوم يمرغ أنفه بالوحل والتراب دون أن يشعر بعقدة ذنب، تشبه تلك العقدة التي يشعر بها البشر من أصحاب الأنوف الممرغة..!!

نعم، كان حمارنا في مراحل عديدة من حياته حماراً سياسياً رغماً عن أنفه!! ومن بين كل الزرائب التي شهدت ضراوة الأيام عليه، ثمة واحدة هي التي جادت بها ذاكرته على مشهد تلك الحيوانة الجميلة كما قال. كانت في تلك الزريبة البعيدة دجاجة تشبهها. لها ذات اللون الحيران بين الألوان، لنسميه اللون القزحي، كانت ألوان ريشها كثيرة ومتداخلة، حتى أضفت عليها مهابة وغرور الطاووس. كذلك لها ذات الطريقة في نقر الحب وتحصيل قوتها، طريقة على شيء من الغرابة بالنسبة لجنس الدجاج. تظل تدور حول موضع الحبة كما يدور كاسر حول فريسته، بعد عدة دورات تنقض على الحبة انقضاضاً يشبه انقضاض نسر من علو، كانت تلك الحيوانة الجميلة، كأنها نسر في دجاجة.. أو دجاجة في نسر.

شهادة رقم 1

زريبة أبي عبدو

قال الحمار:

– كنت يا أصدقائي أنتسب إلى زريبة "أبي عبدو"..

قالها بطريقة لم تدعنا نسأل: من هو "أبو عبدو" ذاك وفي أي جمهورية من تلك الجمهوريات المتحادة والمتخاصمة. أوحت طريقة القول، أن "أبا عبدو" هو جمهورية رابعة مستقلة، معرف بذاته، لا يحتاج إضافته إلى أي من الجمهوريات الثلاث.

واصل الحمار:

– هناك حيث مسقط رأسي ومرتع يفاعتي. كنت أمارس العمل إياه، عمل الحمير، ربما بحماس زاد قليلاً عن حماس أقراني. كانوا ينقلون على ظهري أكياس الحنطة والشعير والعدس في مواسم الحصاد، ومن ثم أكياس الطحين بعد أن يتم طحنها في مطاحنهم البعيدة عن القرية. لحماستي وحساسيتي في مراعاة حاجتهم لي في وقت الحصاد، كنت لا أحتاج إلى من يدلني كيف وماذا أعمل وأعرف طريقي من الحقل إلى المخزن وبالعكس. كنت قد تعديت سني جحوشيتي أو ما تدعونه عندكم بالمراهقة ودخلت مرحلة حمار قوي وموفور الصحة. أظل طوال اليوم رائحاً غادياً، متقوتاً على الكثير من الحبوب الطازجة المخلوطة بسنابل جافة وقشور. أنه موسم الحصاد، مثلما هو لهم مناسبة استثنائية، كذلك هو لي.

أحصل فيه على أفضل ما اشتهيه من غذاء غير مقنن وطازج، الأمر الذي يندر حصوله في باقي المواسم، إذ نضطر للتقوت على ما تناسته مناجل الحاصدين، ومن ثم على فضلات المزابل.

من تجربتي، عرفت أن سلوك البشر في تلك المواسم ،تنتابه الكثير من التغييرات الجدية على الأمزجة وردود الأفعال. تراهم رغم الكد والتعب والإنهاك ولهيب الشمس، يتواصلون مع بعضهم بطوية المسامحة والود والاستبشار، حتى ينسحب هذا على تعاملهم معنا نحن معشر الحمير. تجدهم مثلاً يتسابقون من أجل سقايتي، حتى أن أحدهم يذكر الآخر: لا تنس الحمار! أسقه جيداً.. دعه يستر علينا. مع أني لا أحتاج إلى من يدلني على طريق الساقية، أستطيع العروج عليها بنفسي في رواحي أو مجيئي.

ما أن ينتهي الموسم ويعودون إلى بيوتهم وشئونهم حتى ينسونني. ولأني من الطلقاء، كانوا لا يربطونني. كنا مجاميع من الحمير أطلقنا على أنفسنا مسمى الطلقاء، لنميز أنفسنا عن أولئك الربطاء في الزرائب. كان الربطاء يحسدون الطلقاء، وهذا أمر طبيعي، لكنه، على أية حال، حسد حميري لا يصل إلى مستوى وخطورة الحسد البشري. جل ما يتمناه الحمار المربوط الحاسد، أن يكون كأخيه الحمار الطليق المحسود، لا اكثر ولا أقل.

كنت كسائر الطلقاء أتمتع بحريتي. أخرج من الزريبة وأعود إليها بأوقات وأحوال أنا أقررها. ورثت من صباي حين كنت جحشاً، عادة هجر القرية والتيه في البراري القريبة والبعيدة، لأيام تطول أحياناً.

استمتع بحريتي هناك، أصفن وقت ما أشاء دون منغصات. لا أعود إلا بعد أن أكون قد ارتويت وشبعت مما تجود به الأرض، في البراري، من أعشاب ونباتات تكون مشبعة بتلك الرائحة البليلة، رائحة الأرض التي نعشقها نحن معشر الحمير. وأكون كذلك قد ارتويت في براري الأتان (إناثنا) المبعدات هناك. أمارس بولع وشغف ودون منغصات مؤانثة الأتان من فصيلتي – المؤانثة اصطلاح حميري يعني الدخول في الأنثى. اقره مجلس شورتنا، باعتباره أدق توصيلاً للمعنى من المترادفات الأخرى التي تشعر البشر بشيء من الخجل والتحرج إذ يذكرونها، رغم أنهم يمارسونها يومياً، ناهيك عن ما ستسببه من عراقيل رقابية، بوجه من يحاول مساعدتنا من الناشرين– هناك في البراري البعيدة لم تكن تنقصني الأتان. لأن كل أتان القرى والمدن تم إبعادها إلى البراري، لتعيش حياتها بمعزل عن الذكور.

حسب ذاكرة كبار الحمير؛ أن تلك كانت عادة مستحدثة، لم تكن في القديم البعيد. بل حدثت في قديم قريب. كانت لها حسب تقديرهم أسباباً كثيرة، منها ما يخص الحمير ذاتها، كونها تمارس المؤانثة وإشباع حاجتها لبعضها بطريقة طبيعية، تلقائية، شفافة، لا يتجرأ البشر على فعلها بذات العلانية والشفافية. الأمر الذي كان يتسبب بإثارات تتفاوت حدتها بين من يكون مراهقاً أو مراهقة وبين من يكون قد تعرف على ذلك الشيء ومارسه بشكل من الأشكال. يعتقد كبارنا، أن البشر في دواخلهم كانوا يحسدوننا على طريقتنا الطبيعية

والبسيطة، في حل تلك المشكلة العويصة عندهم، لكن يبقى الكبر والغرور البشري، ينأى بهم بعيدا عن فضيلة التعلم من بعضهم ما بالك بالتعلم ممن يعتبرونه أوطأ منزلة منهم. لذلك، وبدلاً من التعلم منا، أخذوا يعاملوننا بعدوانية وحسد شريرين. وكانت هناك ثمة أسباب أخرى بشرية، حقيقة، لا أعرف ولا الكبار من فصيلتنا عرفوا كنهها، ظلت على شكل طلاسم وعلامات استفهام تصرخ باحثة عن أجوبة. ماذا حل بالبشر ولماذا ذلك الفصل القسري بين ذكور الحمير وإناثها ولماذا ربطوا الذكور في الزرائب..؟ وغيرها الكثير من الأسئلة التي ظلت بلا أجوبة. لنقل بلا فهم من جانب الحمير. لكن بعض الكبار منا، سمعوا في حينها من بين البشر، من أطلق على عمليات نفي الإناث وربط الذكور تلك، مسمى (إصلاح حال الأمة)..!! لكن، أحد من أسلافنا الكبار، لم يفهم ما علاقتنا نحن بحال الأمة. ظلت روايات الأسلاف تتناقلها الحمير شفاهاً من حمار إلى آخر. لقد لاحظوا وقتها؛ أن البشر وقبل أن يبدءوا بالحمير قد بدءوا بأنفسهم. عزلوا نساءهم عن رجالهم، في غضون شهور قليلة، لم يعد أحد من الحمير السائبة يشاهد نساءً في شوارع القرى والمدن وأسواقها. كل من يسير في الشوارع على قائمتين كانوا من الذكور. رغم أن الواحد منا كان يستطيع أن يلمح أحياناً، كائنات غريبة تسير كذلك على قائمتين، لكنها ملفوفة بالكثير من القماش الذي يستخدمه البشر، كائنات مذعورة وعلى عجلة من أمرها وهي على العموم بلا ملامح..!! لا ندري إن كانت تلك

الكائنات الغريبة هن النساء، أم هي كائنات أخرى لا نعرفها هبطت أو وصلت إلى القرية لتحل محل نساءهم.

إلى هذا الحد كانت المشكلة مشكلتهم، لا دخل لنا فيها. لكن مشكلتنا الأزلية كانت وما زالت مع البشر، هي دأبهم على إدخالنا ضمن مشاريعهم وقناعاتهم البشرية، ليجعلوننا رغماً عنا نتشبه بهم. هذه من المفارقات البشرية الكثيرة. نحن مثلاً، لا نحاول أن نقسرهم على التشبه بنا، رغم معرفتنا أنهم لا يتوانون عن تقمص سلوكنا والتشبه به، وحتى منهم من لا يكتفي بقضاء حاجاته المعروفة على ظهورنا، بل يلج حتى تلك الحاجات التي لا تصلح لها سوى نسائهم.

من جانبنا، كما قلت، لم نشغل رؤوسنا ولا حتى مؤخراتنا بما يفعلون أو لا يفعلون، ليفعلوا بأنفسهم ما يشاءون. إنما سياسة الفصل تلك وقد شملتنا، جعلت حياتنا الحيوانية ينتابها الكثير من التشوش والارتباك، بل والكثير من الحمرنة في غير محلها. معروف، أن التحمرن في عرفنا لا يكون إلا لأسباب وجيهة، تستدعي وضع الأمور في نصابها، ومعها وضع حدود لسلوك البشر معنا. بعد ذلك الفصل القسري، غدا التحمرن هو السائد بسبب أو بدونه، صرنا نتحمرن ليس عليهم فقط، بل على بعضنا كذلك. كثرت المناوشات بيننا وبدأت بعض العداوات تلوث النفوس، على الأخص نفوس الربطاء منا. أعترف أن مأساة الربطاء منا كانت هي الأعوص والأكثر إيلاماً ومدعاة للتعاطف معهم، لأن هؤلاء فوق

ربطهم وحجز حريتهم، كانت تُمارس معهم ممارسات من قبل الصبية وحتى الرجال البالغين، لا يمكن لحمار يحترم نفسه أن يسكت عليها طويلاً. رغم أنها على العموم لم تكن استثنائية ووليدة سياسة الفصل الجديدة، كانت فيما مضى كذلك تُمارس، إنما بحدود يستطيع الحمار بطول أناته وسعة صدره التغاضي عنها. لذلك كله كنا نحن الطلقاء نتسامح كثيراً مع حمرنة أحد المربوطين، ماذا بوسعه أن يفعل إذا لم يجد أمامه من يتحمرن عليه غير شبيهه الطليق..؟ كنا نفوت لهم الكثير مما نراه غير لائق بسلوك الحمير مع بعضها.

يقول الكبار أن عملية الفصل الجنسي الحميري، استغرقت مدة طويلة، ولم تكن بذات سهولة الفصل الجنسي البشري. تم خلالها إقصاء كل إناث الحمير وإرسالها إلى البراري البعيدة. وربط الذكور في الزرائب. ولمعالجة أمر العائدات منهن، عملوا ما يشبه حراسات أيام الحصاد. كانت مجاميع من شبابهم وصبيانهم يحيطون بالقرى على مسافات بعيدة، يتولون إبعاد كل من يأتي بها الحنين إلى القرية. تعاملوا منذ البداية بقسوة وحسم وبلا تفرقة بين أتان غني أو أتان فقير. غير أن ثمة أتان عنيدات غير قادرات على هجران الذكور. لقد تعاملوا مع عنادهن بغلظة وحسم، كانوا يضربونهن بعصي غليظة وأسلاك معدنية تدمي ظهورهن. حتى أن أعداداً منهن، دفعن حياتهم ثمناً لحمرنة، كانت، ربما قد بولغ بها من

جانبهن. ما كان عليهن التحمرن على تلك الشاكلة مع بشر قرروا تنفيذ شرائعهم بحزم منقطع النظير هذه المرة.

على أية حال، احتاجت الأتن إلى وقت طويل، حتى اعتدن أخيراً على البيئة الجديدة الخالية من متطلبات ونزق البشر، لكنها الخالية كذلك من الحمير الذكور. صحيح أن غريزة الحيوان تميل إلى الطبيعة والبراري، إنما طول التدجين والعمل مع البشر، كاد أن يستحدث لنا عادات سلوكية جديدة، سداها الاعتماد على ما يجود به البشر من تحصيل القوت، لا على الذات. كنا وبما تبقى من ذاكرة الطبيعة في أجسادنا، نحسد الإناث على ما فعله البشر بهن. ونمني النفس متى يفعلونها معنا كذلك. لكنهم لم يفعلوها أبداً، لقد ادخرونا لأعمالهم تلك غير القادرين عليها بدوننا.

في بدايات الفصل الجنسي الحميري، كنا جميعاً من الربطاء، كانت الحبال والأوتاد والألجمة لا تفارقنا حتى في الزرائب. لعلهم خافوا من أن نفعلها بهجرة جماعية إلى البراري البعيدة. كانوا يوفرون لنا ما تجود به زرائبهم ومزابلهم، من حبوب وقش وقشور وماء ونظل مربوطين داخل الزرائب. لعلهم أرادوا لخطتهم النجاح الكامل، إذ انفلات أحد الذكور إلى برية الإناث، سريعاً ما سيجلبهن من جديد. أو أن خطتهم نفسها كانت تستوجب بقاء الذكور متوارين عن الأعين في الزرائب، لأسباب تتعلق بالتوتر والتمدد شبه الدائم لعضو الحمار الذكري، بسبب افتقاده للأتان. كانت الحرية المسموح لنا بها، هي بطول الحبل الممتد من الوتد إلى ساق الحمار. يحصل

إخراجنا في غير مواسم الحصاد لحاجات هنا وهناك تخصهم، نتنسم في تلك المشاوير رائحة الأرض والطبيعة وما يحمله الهواء من روائح إناث بعيدات لا يمكن الوصول لهن مع اللجام والحبال والسروج.

دامت الحال حسب ذاكرة كبارنا وقتاً قد طال. حتى اكتشفوا بعد طول سنين أن ثمة كارثة ستحل بهم وبأعمالهم ومواسم حصادهم، تلك هي أن الحمار الذي يموت منا، لا يحل محله حمار آخر بسهولة. في البدء عالجوا مشكلتهم بطريقة البيع والشراء، من يموت له حمار، يسارع لشراء آخر من ذات القرية أو من قرية أخرى، مقتطعاً شيئاً من عائد محصوله السنوي، لكن كثرة أعداد الموتى من بين الحمير التي حدثت في سنة من السنين ولأسباب ما زالت مجهولة لنا، رفعت أثماننا فوق قدرة جيوب الأكثرية على الدفع. غدا سعر الحمار الواحد يفوق سعر الحصان، بل يكاد أن يساوي عائد المحصول السنوي من زراعة الحبوب لفقرائهم. حتى صار من يملك أكثر من غيره من الحمير، يصعد درجة أو اثنتين في سلم درجاتهم البشرية، تلك التي لا ندري ماذا يفعلون بها وهم غير قادرين على حل مشكلة بهذه البساطة. كنا حينها سعداء منتشين نسخر في عبنا، على انفعالاتهم التي ينزلونها على رؤوس بعضهم وحيرتهم وانشداه خططهم الإصلاحية العاجزة عن حل مثل تلك المشكلة. رغم ذلك وربما بسببه، صاروا يعاملوننا بأفضل مما يعامل الواحد منهم أبنه أو أخاه.عرفنا السبب ببديهتنا الحميرية، أنهم بحاجة لنا،

كانوا يتوسلون الواحد منا حين يمرض أن لا يموت ويخذلهم والموسم على الأبواب.

أذكر أنني مرضت مرة خلال الموسم وحرنت في منتصف الطريق. كان معي اثنان من أولاد "أبي عبدو" كل واحد من جهة، أرسلهم أبوهم معي لرعايتي. كانا لا يتوانيان رغم تعبهما ولهيب الحر من أن يسردا على مسامعي أجمل الكلام المغمس بالتوسل والتودد. هل ترون كيف تحولت الأحوال، كنت في القديم أسير بمفردي، الآن أسير تحت رعاية اثنين من أياديهم العاملة، التي هم بأمس الحاجة لها في الحصاد. لقد تركوا عادة ضربنا بالعصي أو السوط منذ زمن، منذ داهمهم إحساس الندم على ما فعلوا بإناثنا. رغم مرضي كنت فرحاً ومرتاحاً. إنما فرحي لم يصل حد الشماتة بهم، هذا إحساس بشري لم نجربه نحن معشر الحمير. كنت حقيقة أود مساعدتهم وأنا أرى مبلغ حاجتهم لي. لكني حرنت كما قلت لأسباب خرجت عن قدرتي على التحكم بحركة قوائمي. أنزل أحدهم كيساً من على ظهري وحمله على ظهره هو، عندها أحسست بالتخفف ومشيت بينهما، بعد مسافة غلبني المرض وأوقفني من جديد، قام الآخر بحمل الكيس الآخر على ظهره. هكذا صرت أمشي بينهما الهويني فارغ الظهر وهما يحملان عني الأكياس. فيما مضى كان هكذا فعل حماري يكلف صاحبه أطناناً من الضرب والزجر والشتائم. لما وصلنا نحن الثلاثة إلى المخزن، أنزلوا حمولتهم وساروا بي بدلال إلى الزريبة. أعطوني هناك مزيداً من البرسيم

والمـاء وتركـوني مـع أرق وأنعـم عبـارات التمنـي والرجـاء بشـفائي العاجل. تركوني حتى دون ربطي إلى الوتد، ربما نسوا ذلك، وربما لم تكن بهم حاجة له، كنت غير قادر على الحراك لمرضي الشديد. بعد أيام من رعاية وحدب كل بيت "أبي عبدو" بنسائه ورجاله، تحسنت حالتي وشعرت بالقدرة على العمل. داهمني ذلك الإحساس بالقدرة والقوة، وقت ظهيرة كانت تشوي أجساد الحاصدين في الخارج العاري. دفعت باب الزريبة برأسي وخرجت قاصداً الحقل. هناك، وما أن رأوني، حتى تركوا مشاغلهم واحتفلوا بشفائي وعودتي إلى العمل، هذا يقبلني من رأسي وذاك يربت على أردافي وثالث حمل لي الماء وصوت "أبي عبدو" فوق أصواتهم ولغطهم آمراً منذراً بعدم تحميلي بأكثر من كيس واحد فقط. بالطبع، كان بإمكاني استغلال حالة الدلال والبقاء في الزريبة آكلاً شارباً لحين انتهاء موسم الحصاد، إنما أخلاقي الحمارية لم تسمح لي بذلك الفعل البشري، أعرف أنهم بحاجة لي وأنا قادر على المساعدة.

منذ ذلك اليوم خطا "أبو عبدو" بأول خطوة، كانت هي السبيل إلى فك أزمتهم العويصة. خطوة لم يكن هو مدركاً لأبعادها التالية، أرشدتهم إليها أنا بغريزتي الحيوانية. بعد الحصاد ولمأثرتي الواضحة بنجدتهم في عز العمل والحاجة إلى الحمير، قرر "أبو عبدو" إطلاق سراحي. هكذا أمرهم أن يفكوا لجامي وحبلي ويتركوني اسرح وأمرح على هواي. قال لي؛ اذهب فأنت من الطلقاء.. وكنت أنا أول الطلقاء في قرية "أبي عبدو".

في الصباح التالي، ومع بزوغ قرص الشمس من زاوية الأفق البعيدة، كنت أرى الأرض امتداداً أصفراً من السيقان والقشور والحبوب، على طول مساحات الحصاد. أكلت جيداً وارتويت من الماء، ثم قصدت البرية البعيدة. هناك دهمت أنفي تلك الرائحة الحبيبة، رائحة اختلطت بكثير من روائح أحشاء الأرض. لكن من بين كل الروائح كانت تجتذبني رائحة بعينها، رائحة تشربتها كل عضلة في جسدي. ظللت أمشي على هدي مسيل انهيالها على أنفي من تلك البراري. أنها رائحة الإناث البعيدة، ينضح بها جسد الأتان المهتاجة لملاقاة الذكر. لا يوجد في عرفنا الحميري ما تسمونه في عاداتكم البشرية بالاغتصاب، الذكر منا يعرف أي أنثى تطلبه من تلك الرائحة التي ينث بها جسدها، وهي تعرف الذكر الباحث عنها من بريق عينيه. هو يقصدها وهي تقصده.

لقد كانت البراري بعيدة، استغرقت مني طوال وقت بقاء الشمس في الأعالي لثلاث مرات. كنت أسير مهتدياً ببوصلة أنفية لا يملكها غير الحمير. وصلت أخيراً. وصلت إلى نعيمي.. إلى فردوسي.. إلى خلاصي من سنين الكبت والاحتصار، التي أدخلنا فيها البشر رغماً عن أنوفنا. مارست شغفي وولعي بهن. كنت كريماً معهن جميعاً، لم استثن جسداً واحداً ينضح برائحته، دون أن أفعل له ما يلزم من مؤانثة، لأطفأ فيه ذلك الشوق العارم المندى بنثيث حريف حارق. كن جميعاً متوددات، بعد أن شذبت البرية فيهن الكثير من السلوكيات التي اكتسبنها من البشر. عدنَ إلى طبيعتهن الأولى، لا

مكر، لا مخاتلة، لا دلال مبالغ فيه، حتى العض والتمنع من بقايا الحيوانية المتوحشة، مارسنه معي بأقل وأجمل ما يكون. كانت الواحدة منهن تنتظر طويلاً، حتى تلمح ذلك البريق الدال على رغبتي بها، عندها تقترب مني، تتمسح بجسدي، تعض أذني أولاً ثم تتجول بأسنانها الصلبة الحادة، تعض عضات لذيذة على مدار رأسي ووجهي، تلتف حولي وألتف حولها، نتشمم بعضنا وقتاً طويلاً لنرتوي من روائحنا.. بعد ذلك.. بعد ذلك فقط نبدأ بالفعل الذي حرموه علينا هناك.

في تلك الأيام التي لا اشعر بها كيف تنقضي، كان الشيء الوحيد الذي ينقصني هو الصفنة. لم أكن أصفن طويلاً، كثيراً ما أُداهم قبل الدخول في الصفنة، بواحدة قد طفح كيل صبرها وبلغ مبلغ اللاصبر. أتغاضى عن فعلتها في تكدير صفنتي واستجيب لما تريده مني. كانت تلك الأيام أياماً لا تُنسى. يبدو أن غيابي عن القرية قد طال، إلى الحد الذي ساورتهم به الظنون ودفعتهم إلى لوم الرجل الطيب "أبي عبدو"، على فعلة إطلاق سراحي. لكني عدت. كم طال بقائي هناك، لا أدري. بعد عودتي عرف "أبو عبدو" أين كنت، مهما كان من اختلاف بين البشر والحمير، لكننا نظل ذكوراً ونفهم بعضنا. لم يفعل لي شيئاً، دعاني أدخل الزريبة. وظل يردد مع نفسه بصوت مسموع تلك المخاوف التي انتابته لغيابي من احتمالات افتراس الذئاب لي. ثم طلب من ابنته أن تقدم لي الحبوب والماء. لم تكن في رغبة للأكل. لكني كنت ممتناً ل-"أبي عبدو"

وابنته، خصوصاً ابنته وهي تمسح على رأسي وتربت بحنو على ظهري، كانت حنون وعطوف تلك البنت.

عرفت بعد أيام أن هناك كثيراً من الحمير تم إطلاقها. حتى غدت أعدادنا نحن الطلقاء في تزايد. كان كل فلاح يطلق واحداً من حميره ويدعه يقصد بأنفه تلك البراري. ليعود منها بعد مدة قد تطول أو تقصر حسب ما يقرره الحمار، منتشياً، موفور الصحة، وطيعاً إلى حد باستطاعة طفل غرير أن يقوده حيث يريد. تباعدت الفترات الفاصلة بين حمرنة وأخرى فيما بين الطلقاء، وحلت بدلها علاقات من نوع جديد، أخذت بالنسج فيما بينهم أولاً ومع البشر ثانياً. علاقات سداها ولحمتها الفهم، الذي غدا مشتركاً هذه المرة، بين ما يريده البشر وما يريده الحمار. صحيح أن الدافع وراء فعلهم ذاك كان حلاً لمشكلتهم هم، لكنه كان حلاً لمشكلتنا كذلك. مع أنهم لم يتقدموا خطوة أبعد من تلك الخطوة، ظلت الإناث في البراري، والذكور في الزرائب أو في محيط الزرائب والتمييز لم يزل سيد الفهم البشري فيما يخص الربطاء منا. لم يهتدوا إلى سياسة التدوير بين الحمير، ليس بالضرورة ذات الحمار يُترك طليقاً طوال الوقت والبقية في الزرائب، كان من الممكن أن يناقلوا بين حميرهم، ليحقق الجميع مبتغاه ويرتوي من نصفه الآخر. إنما كونهم بشراً محدودي الإحساس بالغير ومدفوعين لتحقيق مصالحهم البشرية فقط، لم يهتدوا إلى هذا الحل العادل للجميع. ظل اختيار الحمار الطليق، يخضع لقواعد تنتسب إلى العشوائية والمزاجية في غالب الحالات.

أقول هذا، مع تثبيت رفضي الكامل لسياسة التمييز تلك من الأصل. لِمَ هم لا يتركوا الحيوانات تعيش حياتها الحيوانية بشفافية وعلنية كما كانت تفعل فيما مضى.. ولِمَ هم اختاروا الحمير دون غيرها، لينزلوا عليها جام غضب تشريعاتهم الإصلاحية تلك.. ثم ما الذي أرادوا أن يصلحوه وهم خربوا نفوسنا ونفوسهم.. ولماذا ظلت حيوانات أخرى في القرية تمارس حياتها كما هي..!!؟ إذا كان انكشاف عضو الأتان الأنثوي وبروزه الواضح هو السبب الذي استفز مخيلة شيوخ شرائعهم.. طيب، لماذا استثنوا الحصان والفرس من تلك السياسة التشريعية الجديدة.. هل عضو الفرس أصغر أم أقل بروزاً..!؟. ظل الحصان يفعلها مع الفرس على مرأى من عيونهم ومشاهداتهم والثور يفعلها مع البقرة والديك مع الدجاج والكبش مع النعجة.. لماذا الحمير فقط هم الاستثناء..!!؟ ثم سؤال آخر.. هل العضو الذكري للحمار، المكشوف والمعروف بطوله وضخامته هو أقل إثارة لإناثهم.. لماذا هم خافوا على مشاعر ذكورهم ولم يخافوا على مشاعر إناثهم..!!؟ ظلت النساء تتفرج طوال الوقت، على أعضاء الحمير المنتصبة المتوترة أبداً بفعل طول الربط ولا يملكن غير التهامس مع بعضهن، تهامس مخلوط بآهات وأنات وحسرات ولا يخلو من الضحك في عبهن، ربما سخرية من إصلاحات الرجال.

على العموم، لم يكن شيء واحد من أفعال البشر مقنعاً أو مفهوماً لنا. خصوصاً وأن من خافوا عليهم من لوعة المشاهدة، وبعد

عمليات التهجير والنفي لإناثنا صاروا يفعلونها معنا. ما أراد شيوخ شرائعهم من تجنبه قد استمر في الحدوث، إنما مع ذكور الحمير هذه المرة.

كانت تلك الحوادث تأخذنا أحياناً إلى حدود التدخل في شؤونهم، الأمر الذي لا نحبذه في مداولاتنا الحميرية. نعرف أننا لا نصل إلى شي، لذا نقفل عليها ونعود إلى شؤوننا.

كما قلت، كانت تلك الخطوة التي خطاها "أبو عبدو" هي الخطوة التي فكت ضائقتهم الدائمة للحمير الذكور، رغم أنها لم تكن مقصودة، كانت نزوة استثنائية فعلها الرجل لمجرد مكافأتي، وجاء الحل الحقيقي الذي فك تلك الضائقة، من فعلي الحيواني. فعلته مسترشداً بغريزتي الحمارية لا بتشريعاتهم البشرية.

بعد ذلك الاكتشاف، استحدثت القرية موسماً جديداً، أضافته إلى باقي مواسمها. أطلقوا عليه مسمى (موسم صيد الجحوش). في هذا الموسم تكون إناث البراري، قد وضعن بين الولادات، ذكوراً كثيرة من مؤانثات الطلقاء. ترسل كل قرية مجموعة من شبابها الأقوياء، العارفين بدروب وشعاب البرية، لصيد أولئك الجحوش والعودة بهم إلى القرى، لسد النقص الحميري. يخرجون إلى تلك البراري البعيدة، محملين بعدتهم من الحبال والألجمة وزوادات الطعام. يمكثون هناك أياماً وليال. ينتابهم فيها فرح وانطلاق أسارير تضخه في عروقهم البرية ذاتها، هواء عليل صاف من شوائب الأتربة والغبار والروائح الكريهة في زرائبهم، ثم ذلك الامتداد الذي لا يحده غير الأفق

البعيد، حيث ترعى قطعان الأتان مع مواليدها، على شكل مجاميع ملونة، تنسجم وتتناغم ألوانها مع ألوان الطبيعة، فيها الأسود والأبيض والرمادي والبني، كل ألوان الطيف الحميري تجدها هناك، لأن البرية غدت مرتعاً لكل أتان البلد وربما البلدان المجاورة كذلك.

سبب آخر يضاف إلى مرح وانطلاق صيادي الجحوش، هو الحرية. يكونون هناك بعيدين عن تلصص عيون الكبار والشيوخ من أصحاب الممنوعات الكثيرة. يبدو الواحد منهم كأنه في رحلة تحلل من كل الالتزامات والممنوعات. تشدهم لحمة وألفة إلى بعضهم لا يألفوها هناك قرب الزرائب، حيث تنشب بينهم بين الحين والآخر عداوات وحزازات بشرية، تفرزها طبائع البشر من حسد وغرور وأنانية..إلخ حتى أنهم يحاولون في كثير من الحالات إطالة أمد صيدهم. يداورون حريتهم أياماً إضافية، تمتد حتى تنفد زوادات أطعمتهم التي جلبوها معهم من القرية.

وهم إلى ذلك، كانوا في البرية البعيدة يمارسون مع الأتان ما يجب أن يمارسونه مع نسائهم، بعلنية وبشفافية حمارية بحتة. بعد أن يصطادوا كل الجحوش الصغيرة ويطمأنوا لربطها إلى جذوع الأشجار أو بالأوتاد المتوفرة لديهم، يدخلون في منافسات جديدة على صيد الأتن وربطها كذلك. يعمل كل منهم دائرة وهمية على الأرض، على شكل زريبة خيالية يضع فيها أتانه. بعد الانتهاء من حدود الزرائب، تبدأ مرحلة ترويض وتطويع الأتان، التي تكون قد نست منذ زمن طويل، عادة طاعة البشر والرضوخ لهم. في هذه

الممارسة، لا يتساوى الجميع من حيث الخبرة والدراية ووسائل التطويع، لكنهم لا يبخلون على بعضهم بالمشورة والمساعدة إن لزم الأمر. على أية حال كان الأمر مشاعاً وعلنياً فيما بينهم، ومنتجعات زرائبهم الخيالية متجاورة. يقضون فيها أياماً في رخاء التنفيس عن كل احتصارات الشهور الطويلة بين موسم وآخر.

أكثر من ذلك، كان المرح والانطلاق والحرية تأخذهم بعيداً، إلى حدود مؤانثة بعضهم للبعض الآخر. –هنا استدرك وأسحب مصطلح المؤانثة، لأن الذي يجري هناك كان دخول ذكر في ذكر..!! يعني ملاوطة– يواصل الحمار.. صحيح أننا في القرية لم نكن نشاهد هكذا مواقعات بين الذكور، لكننا، في البرية حصلنا على مثل تلك المشاهد. حقيقة، يظل سلوك البشر يحيرنا نحن معشر الحمير!! لماذا هم يواقعون بعضهم، بعد أن توفر لهم رخاء مؤانثة الأتان.. ولماذا هم يؤانثون الأتان بعلنية وشفافية بينما يواقعون بعضهم بسرية تامة، مقتنصين ظلال الأخاديد والأشجار وظلام الليل.. لماذا كل ذاك والفعل واحد..!!؟ سنظل غير قادرين على فهم البشر ونزواتهم وحاجاتهم وسلوكهم غير السوي.. ربما لأننا حمير!!

علمت هناك من إناث البراري، أن بعضاً منهن قد تعرفن على براري أخرى بعيدة، تقع خلف عدد من الحدود الدولية. كن يقصدنها بين حين وآخر في نزوة تشبه تبديل المنافي، بدلاً من منفى أتاني خالص يكونن فيه تحت رحمة وتصدق بعض الطلقاء، يذهبن إلى

تلك البراري بحثاً عن حياة حيوانية سليمة. يروين؛ أن بشر تلك البراري لم يتوصلوا بعد إلى قانون اجتثاث الأتان. لا يفرقون هناك بين الحمار والأتان، بل يجمعونهم مع بعض في زريبة واحدة ويشتغلون على الاثنين. لكن هذه المغامرة، مغامرة الوصول إلى تلك الحدود البعيدة جداً، لا تقوم بها كل أنثى، إلا تلك المحرومة من التواصل مع حمار ذكر ولمدد طويلة، أنثى تكون قد دخلت في مرحلة من أخطر المراحل الحيوانية، مرحلة اليأس الأسود، التي تنذر بجفاف منابع تلك الرائحة الحريفة التي تطلقها أجسادهن. عندها تأخذ بعضها وتقصد تلك البراري البعيدة. أما الكثرة الغالبة من الإناث، فراضيات بقدرهن المقنن من قبل البشر وعطف بعض الذكور من أمثالي، الطلقاء الحاصلين على شهادات الثقة الكاملة من مالكي الزرائب.

ظللت لسنين طويلة على ذلك المنوال. أتعب وأشقى حتى ينسلخ جلد ظهري أيام موسم الحصاد. لكني أعوض كل ذاك في المواسم التي تأتي بعده. كنت بالنسبة للربطاء في زريبة "أبي عبدو" من المحظوظين. مقارنة بحالهم، هم المتروكون لمصيرهم، أكل مقنن، شرب مقنن، حرمان من الإناث. من المؤكد أنهم كانوا يحسدونني، لكنهم مخطئون! لقد وصلت إلى ما وصلت إليه بجهدي وكدحي وقوة تحملي الحمارية الاستثنائية، كانوا يحملون على ظهري في المرة الواحدة خلال موسم الحصاد، أربعة أكياس، بينما الحمار العادي يوازنون جسده بكيسين لا غير. كنت أمارس حماريتي إلى

مـداها الأقصـى، وأنـا أرى ضـحكات الاستحسـان البشـرية، حتـى تعلمت تالياً ومتأخراً، أن البشر لا يستحسن ويمدح الحمار، إلا إذا كان طيعاً راضياً باستحماره لآخر مدى. كنت أنتع الأكياس وأذهب راكضاً حتى المخزن ثم أعود راكضاً، دون أن اسأل نفسي السؤال الشرعي: لماذا تركض يا حمار.. هل ركضك يبدل من الأمر شيئاً.. هل سيجلسونك في مجالسهم ويسألونك رأيك على الأقل في شؤونك..!؟ كنت حماراً أمارس أخلاق الحمير السوية غير المجبولة على الخبث والمواربة والخداع.

والآن اسمعوا هذه القصة الطريقة:

حصل في أحد الأيام، وفي إحدى الزرائب الكائنة خارج تجمع بيوت القرية، أن تشاجر صبيان، قرب مؤخرة حمار من الربطاء. فج أحدهم رأس الأخر بحديدة كانت بمثابة وتد ربطوا به الحمار. سالت الدماء وكثر البكاء والعويل، حتى وصل الأمر إلى الكبار. الغريب الذي شاهدته وظللت زمناً اضحك كلما تذكرته، أن الكبار وبدلاً من حل المشكلة أو معالجة رأس الصبي المفجوج، وجدتهم قد واصلوا بدورهم ما بدأه الصغار، صراخ وتهديد وضرب وفج ودماء. حتى دخلت القرية بكليتها في دوامة من العنف لا أحد يعرف متى وكيف ستنتهي، ولا حتى نعرف أطرافها. نحن الحمير كنا في تلك الأثناء على الحياد كالعادة، ما لنا ولمشاكل البشر. لكننا كنا نتبادل التكشيرات فيما بيننا ساخرين من ذلك الغباء البشري. رأينا منهم من دخل الشجار والضرب والشج والفج وهو لم يعرف بعد ما الذي

حدث، من هو الجاني ومن هو الضحية ولماذا. يجلب الواحد منهم سلاحه وكأنه على موعد مع العراك. الجميع كانوا يصرخون ويضربون ويهددون، دون أن يسأل أي منهم نفسه أو يسأل جاره.. يا ترى لماذا كل هذا الشج والفج والدماء تسيل..!؟ لأنهم لو سألوا هذا السؤال وتحروا الإجابة، لوجدوها في مربط الحمار وبالتحديد عند مؤخرته. استمر الحال عندهم أياماً، انقسمت خلالها القرية على نفسها، متحولة إلى ساحة حرب. تربص، حذر، غارات على البيوت، خطف رهائن. في المحصلة، سالت دماء كثيرة ولم يسأل أي منهم السؤال الوحيد المعقول: لماذا حصل كل ذلك الجنون من الأصل..؟ أخيراً توصلوا إلى حل المشكلة بطرقهم التي لا نفهم منها نحن الحمير شيئاً. شاهدنا حصول تجمعات كبيرة في زرائبهم. تجمعات لا يرشح منها سوى الصراخ والعياط والتهديد والوعيد، وكأنهم سيواصلون العراك بالأيدي وبالأسلحة البيضاء والسوداء بين لحظة وأخرى، ثم يعقب كل تلك الفوضى وذلك الصراخ، فسحة من الهدوء والصمت، الذي لا تخدشه سوى أصوات حركة الصواني والصحون وهي تنقل من زرائب النساء إلى زرائب الرجال وما يرافقها من أوامر مهموسة تقال في العادة للصغار والمراهقين، لا تخرج عن دوامة تأمين الطبيخ وملحقاته. نفهم أن الأمر يتعلق بوليمة من الرز واللحم، راح ضحيتها عدد من الخرفان الغبية. ثم ينفض ذلك الجمع المتخاصم، بعد أن يكون كل واحد منه قد غرف أقصى ما تستطيع عليه قوائمه العلوية، لكن دونما حل للمشكلة التي

جاءوا أصلاً لحلها. ينعقد تجمع غيره بعد أيام في زريبة أخرى من زرائبهم ويُضحّى بعدد من الخرفان الغبية، أقول غبية؛ لأننا لم نسمع لها غير تلك الماعععععع الطويلة، التي لا ندري؛ هل هي احتجاج أم قبول بالمصير البائس في بطون البشر. والنتيجة هي ذاتها، لا حل يلوح في أفق وليمة الرز واللحم. حتى صار يصل إلى القرية رجال غرباء من قرى أخرى، لعلهم كانوا يتمتعون بسطوة من نوع ما على هؤلاء البشر، كانوا بملابس غريبة غير معتادة في القرية لكنها نظيفة. أخيراً، لا ندري بالضبط كيف حل أولئك المشكلة دون معرفة السبب أو على الأقل الكشف على موقع الحدث عند مؤخرة الحمار. ظل الحمار مربوطاً في مكانه والصبية عادوا بعد ذلك إلى ألعابهم ذاتها، كأن شيئاً لم يحدث..!! كذلك استمر الملثمون يختلون ببعضهم في تلك الزرائب المعزولة نسبياً عن بيوت القرية، ليمارسوا ذلك الشيء، بعصبية وخوف واستعجال. ولسان حال الحمار المربوط ظل يسأل: لماذا هم يخجلون من فعل يمارسونه.. ولِمَ لا ينظر الواحد منهم في وجه شريكه، يدخلون الزريبة ملثمين، ويمارسون المواقعة ملثمين ويخرجون ملثمين.

أعتقد لو أنهم كلفوا أنفسهم وسألوا أي حمار منا، لكنا أرشدناهم إلى جوهر المشكلة، ولأنجيناهم من تلك المعارك والغارات الغبارية على بعضهم. إلا أنهم لم ولن يسألونا، لأنهم يعتبروننا حميراً. ونحن كذلك لم ولن تعنينا لا من بعيد ولا من قريب شؤونهم وشجونهم.

هنا بدا على الحمار أنه يريد أن يكشر. فعل التكشير يستخدمه الحمار في حالتين؛ أما للموافقة على شيء أو للسخرية من شيء. كما هو واضح الفرق كبير بين الدلالتين. إلا أنه سريعاً ما استدرك حيرتنا من تكشيرته تلك وأوضح:

كنت أسخر يا أصدقائي من غباء البشر.. واسخر كذلك من حيرتنا نحن معشر الحمير. كثير من الأسئلة نتداولها فيما بيننا، دون أن نحصل على إجابة مقنعة شافية عليها.. هل عندكم إجابات وأنتم تدعون فهمنا والدفاع عنا..؟

أدار الأمير رأسه دائرياً بيننا، وعيونه تسأل: ماذا أقول له؟ لم يجد على وجوهنا مشروع إجابة. عاد إلى الحمار:

– هذا يتوقف على أسئلتك.

أردف الحمار على الفور مستبشراً وكأن الأمير قال: نعم، أنت تسأل ونحن نجيب:

– هو سؤال واحد، لكني سأطرحه عليكم بعد أن تستمعوا إلى هذه الحكاية. سأسرد لكم شيئاً من وقائع يومياتنا مع البشر. اسمعوا القصة أولاً ومن ثم يأتي السؤال:

اشتكى مرة أحد الشبان من تورم عضوه الذكري. نهض في الصباح على ألم لا يطاق في عضوه. ما أن يسألوه حتى يجيبهم: لا أدري، نهضت من نومي رأيته هكذا. لم يتجرأ على قول الحقيقة. منهم من عزا الأمر إلى قرصة دبور أثناء نومه الصيفي في العراء، آخرون عزوه إلى قرصة نمل من نوع خاص دعوه (أبو شوارب) ولا أدري

كيف رأوا شوارب النمل والنمل ذاته بالكاد يُرى. وصفوا له أعشاباً يشرب نقيعها وأدوية أخرى، جربها المسكين كلها، لم تضر ولم تنفع. ظل عضو الشاب ينتفخ ويتمدد، حتى صار بعد أيام ينز منه القيح والصديد. كان الشاب لا يهدأ طوال الليل والنهار من الأنين والتشكي. خصوصاً إذ تضغط عليه مثانته. لكنه ظل يأبى قول الحقيقة. طالت معاناة الشاب مع عضوه المتقيح والمتضخم، جلبوا له أحد شيوخهم بعد أن ذبحوا له دجاجة جميلة، قرأ له هذا أشياءً وأعطاه أشياءً أخرى يعلقها في رقبته، وكأن المشكلة في رقبة الفتى وليست في عضوه. بلغت آلام الفتى ومعاناته مع عضوه النازف قيحاً، حداً لم يعد يحتمله. نقلوه إلى المدينة، وعاد منها بحزمة مراهم ومعاجين وأقراص ملونة. جلبت له أدوية المدينة بعض الراحة والهدوء من الأنين الموصول، إلا أن عضوه استمر بالتكور والتضخم حتى غدا بعد أسبوع يشبه كرة صغيرة. مع تطاول الأنين والأوجاع المبرحة، تطاولت معها ملكة الخيال البشري. ظل كل واحد يزور الشاب للتضامن معه، يتحزر له سبباً للمشكلة، وهذا صامت لا يريد البوح بالحقيقة. أم الشاب وهي تولول على مصيبة ابنها، عزت الأمر برمته إلى شؤون الحسد وسهام العيون الخبيثة، ثم انقلبت بعد ذلك إلى خطيبته. كان الشاب على وشك الزواج من واحدة من تلك السائرات في شوارع القرية بلا ملامح. طاش الخيال بالأم المفجوعة بمصيبة ولدها، لاتهام أهل الخطيبة. أخذ لسان حالها يردد: بيت النحس وأهل النحس وذات الوجه النحس.. أبوها

عمل كذا وأمها عملت كذا.. كانت تدخل في تفاصيل فضائحية عن قصة أم الخطيبة وأبوها.. وأكيد الجبهة الأخرى لن تظل هادئة، هي الأخرى تدلي بدلوها حول ذات التفاصيل الفضائحية عن عائلة الشاب. أيام وأسابيع والجبهتان مشتعلتان بالفضائح والشاب يتقلى على فراش الأنين والأوجاع المبرحة. حتى ذبل جسده كزهرة فاتها الربيع وبدل أن يسلمها إلى الصيف أسلمها إلى خريف لا يرحم. ذبلت عضلات جسده المفتول، غارت عيناه في سواد محجريهما، خسفت خدوده ولازم الحزن والشعور بالبؤس والندم ملامح وجهه.

لكن العناية الإلهية لم تهمل الفتى طويلاً. إذ بعثت إلى قريته جماعة من البشر، بدت مختلفة كلية عن جماعات وتجمعات بشر هذه الأرض. جاءت تلك الجماعة تريد استكشاف تربة البرية القريبة، لأغراض لا يعلمها أحد من القرية. وكان في البعثة مع الرجال بضعة نساء كذلك.

لقد ذاعت قصة الفتى مع عضوه الكروي في الأرجاء حتى وصلت إلى البعثة الغريبة. وما أن سمعت بها إحدى السيدات، حتى أعلنت أمام زملائها وزميلاتها؛ أنها قادرة على حل مشكلة هذا الشاب، رغم أنها ليست طبيبة. أحد من زملائها وزميلاتها لم يفهم بعد، كيف أنها قادرة على حل مشكلة ذلك الفتى، رغم أنها لم تر الشاب، وأكيد هي لا تعرف طبيعة المشكلة ولا سببها الحقيقي. أسئلة كثيرة داورت رؤوس زملائها دونما إجابات. لكنها في دخيلتها وربما بحاستها السادسة، حدست طبيعة المشكلة وسبيل علاجها، ووجدت في

داخلها شعوراً إنسانياً يدعوها لتقديم العون وإنقاذ الشاب. طلبت من زملائها توصيل هذا الأمر إلى أهل الشاب. تطوع المترجم على الفور بتحقيق الأمر. في اليوم التالي صباحاً وصل الشاب إلى مخيم البعثة. من أول نظرة تحققت السيدة الشابة من صدق حدسها، كان الشاب بهيئة رثة ووجه قد انخسف إلى الداخل وتجعد من الآلام المبرحة. طلبت من زميلتها في الخيمة أن تهجر خيمتهما طيلة النهار. اكتفت بالنظر إلى الشاب من بعيد ولم تكلمه. دارت في رأسها خطة من عدة مراحل، لا مكان فيها للمترجم والأدوية. طلبت من المترجم أن يأخذ الشاب إلى خيمتها والتشديد عليه بعدم الخروج منها مهما طال الانتظار، لحين وصول (الدكتورة). كان عليها أن تحل أولاً مشكلة حياء وخجل الشاب. رأت من تجوالها في البلد أن الرجال في هذه البقاع إذ يكلمون النساء، على الأخص النساء السافرات الوجه والقوام، لا ينظرون بعيونهن، الأمر الذي كان يتسبب بتصعيب التقدير، لدى الطرف الآخر من صدق أو كذب المتحدث. طلبت هي من الجميع أن ينسوا الأمر ويذهب كل إلى عمله. توجهت هي الأخرى إلى العمل الذي كان عليها إنجازه ذلك اليوم مع أحد الزملاء، وكان ذلك العمل يتطلب المكوث في المخيم، تحديداً في الخيمة التي أطلقوا عليها مسمى (المخبر). ما فعلته الفتاة وقبل إخلائها لخيمتها، أنها تعمدت نسيان مجلة (بلاي بوي)، تركتها مرمية بإهمال على سريرها ومفتوحة على إحدى الصفحات. أعطت الفتى وقتاً طويلاً. كانت متأكدة أنه سيدخل في

ثنايا أجساد نساء المجلة، وبالتالي ستُحَل عقدة الخجل والحياء. مع اشتداد حرارة الظهيرة في تلك البقعة الجرداء، وتيقنها من سبات الزملاء والزميلات لنوم القيلولة. قررت البدء بعلاجها. أخذت معها حبلاً طويلاً، ربطته إلى وتد الخيمة من الخارج، قدرت طوله وفق حسابات في رأسها. ثم دخلت على الفتى بشكل مفاجئ، لكي لا تمهله فرصة التخلص من المجلة، وقد صدق حدسها، كان الشاب غارقاً في تضاريس عالم المجلة. وما أن رآها، حتى ارتبك ورمى المجلة إلى أعلى مع صرخة لا يدري كنهها صدرت لا إرادياً من أعماقه. عادت المجلة وهبطت في حضنه. طأطأ برأسه إلى الأرض. أخذت هي المجلة من حضنه. كان واضحاً أنه قد نسى آلامه. اقتربت الفتاة منه، رفعت حنكه إلى الأعلى، ابتسمت بوجهه بوجه سوف لن ينساه طيلة حياته. أفهمته أن يخلع ملابسه وهي تتطلع ما زالت إلى صور المجلة، بدا مترددا. مدت يدها، تريد رفع الدشداشة إلى أعلى، ساعدها هو بالتخلص منها. أشارت بعد ذلك بإصبعها إلى بيت الداء، أن أخلع سروالك كذلك! ما زال الشاب يتصبب عرقاً، وعيونه تبصبص في كل شيء داخل الخيمة إلا وجه الفتاة، حاولت هي خلع السروال، مسك يدها بعيون متوسلة: أن لا. بدأ هو بخلعه. وتكور على نفسه خافياً عضوه الكروي. طلبت منه بالإشارات أن يعقد يديه إلى خلف ظهره، ربطت يديه بالحبل الذي كان معها. ما زاد معاناة الشاب، أن السيدة كانت جميلة فوق قدرة خياله على تصور جمال المرأة.

كان علاجها ببساطة يعتمد استعراض مفاتن جسدها الأنثوي، عبر حركات كلها دعوة له. وعلى ذلك المربوط أن يقوم ويفعل شيئاً لجسد ينضح إثارة وشبقاً، وهو فتى محروم من مشاهدة جسد المرأة، ما بالك بجسد شابة هيفاء على نحافته، يضج بتلك الاستدارات الجيلاتينية المدوخة. كانت مع الاستعراض تحاول إبطاء جريان الزمن.

في البدء سعت إلى تثبيت عيونه. كانت عيون الشاب تشرد في كل الأنحاء باستثناء النظر إلى الفتاة. حتى وطنت بصره على النظر بثبات إلى جسدها. ظل جالساً مربوطاً إلى الوتد الخارجي، وهي تتخطى داخل الخيمة بملابس ضيقة شفت عن قوام وصدر وأرداف أهلكت الفتى. صار العرق ميازيباً على طول جسده. بعد مدة قدرتها برأسها، بدأت بتنفيذ مرحلة التعري أمامه. خلعت فانيلتها الخفيفة أول الأمر، ثم بنطالها القصير. كان كل شيء محسوباً برأسها على ضوء ردود فعل عيون الشاب. خلعت السوتيان. هي الآن عارية إلا من السروال الداخلي الصغير والصغير جداً. لقد نجحت بترويض عيون الفتى وتثبيتها. صار ينظر إلى حيث تريده أن ينظر. بعد وقت لعله قد طال على الفتى، لأن الذي كان ينبض ليس قلبه فقط، بل كل جسده. حتى عيناه بعد الترويض و التثبيت صارتا تتململان من محجريهما. عندها قدرت الفتاة أن الوقت قد حان للضربة الأخيرة، لأخطر مرحلة من مراحل علاجها، سيكون جسدها في

متناول هيجان الشاب. طلبت منه بالإشارات أن يخلع لها سروالها الداخلي سألها بعيونه: كيف!!؟ افهمته: بأسنانك..!!

ظلت واقفة فوق رأسه لبرهة حتى تناقلت حواسه وأعصابه وخلاياه أمر الفتاة الملتبس. صار يحرك رأسه بعنف كأنه يريد تفريغه من أشياء تعيق عليه الفهم، أو ليملأه بعطر وروائح تنتشا تلك البؤرة المتمردة بزغبها الأشقر على حواف السروال. أراد بعيونه وجسده، أن ينقل للفتاة توسله أن تفك وثاقه. فهمت إشارات عيونه ووجهه، لكنها ما زالت تؤشر بأصبعها وعيونها الضاحكة، أن لا. استخدم اسنانك..! دخل أخيراً في التمرين متتبعاً بأسنانه وعيونه وكل عضلات جسده، مسرى السروال الصغير من موطنه الأصلي حيث الزغب الأشقر المتمرد، حتى آخر إصبع من أصابع قدميها الصغيرتين، وكانت هي تعرقل مسار الرحلة متعمدة، لتزيد من عذابه وعذابها معه. هي الأخرى لم تعد مسيطرة على أحاسيسها تماماً. دام مسرى السروال زمناً لعله دهراً، قبل أن تند عن الفتى تلك الصرخة المرعبة، لم تكن صرخة، كانت مزيجاً من صراخ على ألم على بكاء على توسل على تحدي على وعيد، كانت الصرخة كل تلك الأشياء. وبغريزة الأنثى، هربت هي إلى أبعد بقعة داخل الخيمة لا يطالها هياج الشاب المربوط. لقد هاج جسد الشاب ولفظ كل أوجاع ومعاناة الأيام والأسابيع، قذف ذلك الاحتصار الذي كان في جسده مثل احتباس نهر وراء جدار سد جبار. حتى خشيت الفتاة من أن تكون روح الشاب هي التي خرجت مع تلك الصرخة.

همد جسده، وجعه، رأسه. لقد سقط على ركبتيه بعد أن أراد الوقوف مبللاً بعرقه ووهن ساقيه، تحول رأسه إلى مرجل للحرارة، لم يعد يرى شيئا أمامه، حتى لم يعد يرى الفتاة الواقفة في طرف الخيمة القصي، وضعت الفتاة يدها على فمها وعيونها تنطق بالذعر. كانت هي الأخرى خائفة من مآل مغامرتها. ظل جسد الفتى يتشنج ويرفس كل ما تطاله قدماه. بعد ثواني، دقائق، ساعات، إذ لم يعد للزمن من معنى في تلك الخيمة. همد جسد الفتى كأنه غفا، لكن الأنين ظل يُسمع. اقتربت الفتاة رويداً وأخذت تتفحص القيح الخارج من عضوه. وما أن رأت حبة الشعير الصغيرة مموهة بالقيح والصديد، حتى صرخت هي الأخرى بصرخة هوجاء (هوووررررا). لم تشبه صرخة الفتى، بل صرخة من انتصر في مغامرة لم يكن هو نفسه واثقاً من نجاحه فيها. ارتدت ثيابها على عجل وخرجت من الخيمة. وجدت هناك زملاءها وزميلاتها محيطين بالخيمة. لعلهم سمعوا الصرخة. استقبلوها بالتصفيق والابتسامات العريضة. ابتسم وجهها لهم ابتسامة المنتصر، وقالت للمترجم: دعه نائماً الآن وفي المساء حل وثاقه ليذهب إلى بيته. لقد انتهى علاجي. لكن قل له يواظب على تلك الحبوب الملونة.

هكذا كان نصر تلك السيدة الشابة. أعادت للشاب تلك الجذوة التي كانت على وشك الخمود مرة وإلى الأبد. لكنها وبالمقابل، سلبت من الشاب شيئاً قد عذبه فقدانه طيلة حياته. سلبت منه الرغبة بالمرأة. نعم، لم تعد به رغبة للنساء. لقد تزوج مثنى وثلاث ورباع، طلق

كثيرات وتزوج كثيرات، لم تكن أي منهن تعني له أكثر من وسيلة إنجاب فلاحين صغار. ظل في دخيلته يبحث عن (الدكتورة) في نسائه وغير نسائه. صارت ضيفة أحلامه ومبعث كوابيسه وهاجس بحثه اللامجدي. حتى اختفى من القرية ذات صباح ولا أحد يعرف أين رحل.

أعذروني يا أصدقائي من القسوة على اشباهكم. الآن يأتي دور السؤال:

– من الذي اكتشف قانون العلة والمعلول..؟

صرنا هذه المرة نبحلق بوجوه بعضنا. ماذا حدث للحمار.. وإلى أين يريد أن يأخذنا.. لعله كان (حمار ديبرون) الفلسفي متنكراً..؟ أجابه الأمير:

– يا صديقي! أنت تدخلنا في الفلسفة. هناك فلاسفة كثر قالوا بهذا.. لكن ماذا تريد أنت؟

اجاب الحمار على الفور:

– يعني أن من اكتشف القانون لم يكن حماراً..؟

أجابه الأمير:

– على حد علمي.. لا.. لم يكن حماراً..!!

– طيب. لماذا لم يستخدم بشركم هذا القانون لحل مشاكلهم..!؟

ولما وجدنا قد صفنا طويلاً نبحلق بوجوه بعضنا، كشر تكشيرة السخرية، ثم أردف:

– لا عليكم.. ما زلتم بشراً..!!

أدار أميرنا مرة أخرى رأسه بذات الدائرة البندولية، التي بدت أنها دائرة من الحيرة. ماذا بوسعه أن يجيب. أدخل كل منا إصبعه في إذنه كأنه يبحث عن الجواب هناك. أخرج الأمير إصبعه أخيراً، مؤكد لم يجد في إذنه شيئاً، لأنه بدل الجواب سأل الحمار:

– وماذا تقول أنت؟

ظن الأمير؛ أنه أعاد الكرة إلى ملعب الحمار، في مناورة اعتقدها ذكية، لاستشفاف رأي الحمير في حل مشاكل البشر. لكن حمارنا كان بالمرصاد لمثل هذه المناورة، عاجلنا وأدخلنا من جديد في حيرة الفهم، لم نفهم هل بدأ يسخر منا ومن مشروعنا أم.. ماذا..؟ قال الحمار:

– أرى مهمتكم عويصة مع اشباهكم يا أصدقائي!

عادت الكرة إلى ملعبنا من جديد وعاد معها بندول رأس الأمير في حركته الدائرية مستطلعاً وجوهنا. لكنه قرر أن يدع الحمار يواصل سرده:

– كما قلت أنت أيها الصديق؛ أننا ما زلنا بشراً..!!

كشر الحمار بأسنانه المخضرة المصفرة من هرس الحشيش، مردفاً ابتسامته بهزة رأس عمودية. كان يسخر منا هذه المرة:

– معكم حق. نعم. ما زلتم بشراً. دعونا نواصل إذن..!!

استجاب الحمار لعجزنا على ما يبدو. واصل سرده:

– في تلك الأجواء الملبدة بالاختلاء الليلي للملثمين، والفصل العنصري النهاري، وفي بداية نهار بليل، سمعت صوت "أبي عبدو"

يطلب من إحدى بناته أن تربطني، ثم تطعمني وتسقيني. بدا لي الأمر مستغرباً، جلب لي الكثير من الصفنات الطوال. يا ترى لماذا يربطونني بعد كل هذه السنين من الحرية..!؟ خصوصاً أن الموسم ليس موسم حصاد، كذلك النهار البليل هو ما كنت أنتظره زمناً طويلاً، في هذا النهار ومع هطول قطرات المطر الأولى، يكون العشب قد ترطب، وصار اسهل وألذ على المضغ والبلع. طعم الماء يضيف نكهة ومذاقاً جديدين للعشب اليابس. كان اليوم بالنسبة لي يوماً استثنائياً، أعددت نفسي له، بل حتى قررت العروج من هناك إلى تلك البراري، والبقاء هناك أياماً مستمتعاً مع الأتان اللواتي أحب، في جو حميري حميم نستعيد به ذكريات أجسادنا الملوَعة. لماذا فعلها "أبو عبدو" هذا الرجل الطيب معي.. هل تراني ارتكبت خطأً لم أعرفه في الموسم الماضي.. هل تراني شخت ووجد حماراً آخر أكثر شباباً وفائدة له مني ليفضله علي..!؟ أسئلة كثيرة داهمتني، لم أحصل إلا على استفهامها. لكني، قررت وبعد استنفاد الكثير من الصفنات دونما جدوى، أن استرق السمع لما يقولونه في زريبتهم، علني استشف جواباً يردع هذه الأسئلة الغبية. لم تكن زريبتهم تبعد كثيراً عن زريبتي. كنت أستطيع أن أسمع بوضوح ما يقولونه. وجدت البنت التي ربطتني عند الفجر وأطعمتني وسقتني، تسأل أباها:

– يابه كل الذي تقوله صحيح، لكن ما ذنب الحمار.. !؟

سمعت (أبا عبدو) يجيبها بمزاج عصبي:

– أريد هذا الزنديق أن يفهم منزلته الحقيقية..!!

لقد استشكل الفهم علي تماماً. لم أعد أفهم "أبا عبدو". كان الرجل منفعلاً وليس كل كلامه مفهوماً. لكن، من هو هذا الزنديق.. أهو أسم جديد اختاره لي..!؟ صحيح أنهم كانوا ينادونني من حين إلى آخر بأسماء لا أفهمها في البدء، لكني أتعودها لاحقاً بعد أن أعرف أني المقصود بها، درجاً على عادتهم بإجبارنا على التشبه بهم، لكني لم أسمع يوماً أن أحدهم قد ناداني بالزنديق. ثم ما هي هذه الزندقة التي يريدون إلصاقها بي هذه المرة..؟ كان امتعاضي وصدمتي بالربط بعد كل تلك الحرية، قد أنساني قضية التحري لمعرفة من هو المقصود بالزندقة. دخلت في صفنة جديدة. خرجت منها بعد حين على بكاء ابنته. لم يزل "أبو عبدو" على عصبيته التي بدأ بها ذلك النهار. والبنت تتوسل وتبكي. وصلني من كلامها:

– .. إنه حمار مسكين..!!؟

فهمت أن تلك البنت كانت متعاطفة معي. كم أحببتها في تلك اللحظات. قبل هذه الحادثة كذلك كانت معي ودودة، تتفهم احتياجاتي، تعطف علي، تتفقدني في عطشي وجوعي، حتى وأنا أعود من البراري شبعان ومرتوي، لا احتاج ساعتها أكل و لا ماء ربما لأيام. لكنها رغم ذلك تجلب لي شعيراً وماءاً. حقيقة أنا كنت أحبها أكثر من غيرها. واضح أن توسلاتها لم تنفع مع أبيها الذي بدا واثقاً مما يقول ومقتنعاً تماماً. حتى سمعته يقول:

– البارحة وبعد صلاة التراويح، أشار علي الشيخ بمشورة تمام، لا أدري كيف لم أنتبه لها كل هذه السنين. قال: إذا أردت أن يهتدي زنديقك ويصوم هذا الشهر الفضيل.. اجعل حمارك يصوم! بعد مدة سيجد نفسه أدنى منزلة حتى من الحمار.. سيخجل من نفسه.. أضمن لك سيعود إلى عقله ويصوم ويصلي ويهتدي بأذنه تعالى.. أنت فقط اجعل الحمار يصوم كم يوم وشوف النتيجة.

كان (أبو عبدو) يتكلم مزهواً بحصوله أخيراً على حل كان يحلم بالوصول إليه. كان واثقاً من نصيحة الشيخ. عندها فقط فهمت؛ من كان المقصود بالزندقة. كان يقصد أبنه الكبير "عبدو". كان ذلك ال–"عبدو" شاباً من النوع المتمرد، غير المقتنع بأي شيء من حوله، كل ما يشغله هو التفكير بوسيلة خروج نهائي من القرية وربما حتى من الجمهورية كلها. ما زالت البنت تحاول ثني أبيها عن عزمه الراسخ، بتنفيذ مشورة الشيخ، وهي كانت مرة تبكي وأخرى تضحك، كأنها غير مصدقة ما تسمعه من أبيها. في تلك الأثناء كان "عبدو" يغط بنوم الفجر، لم يكن يعنيه كل ما يدور بالقرب من رأسه. دخلت أنا بصفنة خاصة أردت أن أفهم إن كان ذلك الشيخ الناصح جاداً، أم هو مازحاً مع هذا الرجل الطيب "أبي عبدو"..!! حتى وجدتني في صفنتي أناقش وأجادل الشيخ:

– طيب يا شيخ. ما دخلي أنا بصيامكم وقيامكم.. وما علاقتي ب–(عبدو) إن كان زنديقاً أو غير زنديق..

كانت أسئلة بلا أجوبة كالعادة. لكن ما يحز في نفسي: لماذا اختارني "أبو عبدو" أنا دون أي من الربطاء في زريبته وهم كثر لتعليم ابنه الصوم..؟

تلك الحادثة أطارت صوابي وجعلتني لا افهم البشر بالمرة. استنتجت أنني كنت طيلة الوقت الذي اعتقدت أني فهمتهم، لست أكثر من حمار غبي مغتر بنفسه لا يفهم شيئاً.

هكذا، تركوني حتى غروب الشمس دون أكل ولا ماء، جعلت طيلة نهاري أمضغ عيدان الخشب المتناثرة في الزريبة. و"عبدو" ذلك الزنديق.. نعم أنا كذلك صرت أدعوه بالزنديق.. أكيد هذه مفردة تقال للشتم عندكم.. ذلك الزنديق وبدلاً من أن يتعاطف معي في محنتي ويساعدني، كان يقضي نهاره قبالتي شامتاً، وكل ما يراني أمضغ شيئاً من نشارة الخشب يشي بي لأبيه:

– يابه.. يابه.. الحمار فطر.. تعال شوف شلون يمضغ ويحرك فمه!

ثم يتبع وشايته بضحك طويل، مستفزاً أباه، جاعلاً إياه يفرغ غضبه على ظهري وظهره. هو كان يستطيع الإفلات من حزام أبيه، أما أنا فكنت آكل المقسوم بالتمام. أين المفر والحبل يشدني كلما حاولت الإفلات. ينزل على ظهري بالحزام ضرباً مبرحاً. ثم يطلب من بناته أن ينظفن الزريبة بحيث لم يتركن لي ولا حتى نشارة خشب. كأن "عبدو" وأباه قد اتفقا على تعذيبي. بعد أيام صار الزنديق يجلب

شعيراً وأشياءً أخرى ويضعها أمامي، ليشي بي فيما بعد إلى أبيه. مستجلباً غضبه على ظهري وظهور كل العائلة.

تصرم وقت طويل وأنا على ذلك الحال. كل يوم وجبتين شعير مع ماء وعند الظهر مع اشتداد العطش أأكل المقسوم من حزام "أبي عبدو". وما أن يهبط الظلام ويأكل الأب ويشبع ويرتوي مما حرم منه طيلة النهار، يتمدد على سرير في الفسحة أمام باب زريبتهم، رافعاً ساقاً على ساق، ليعيد على ابنه ذات الكليشة التي غدت مملة مع مرور الأيام:

– شفت الحمار شلون صام! يا حمار يا ابن الحمار. الله أعطى الإنسان العقل وجعله زينة، لكنك حمار من أين لك العقل.

ثم ينهي موعظته بتنهيدة لا تدري إن كانت هي شتيمة لنفسه أم لابنه:

– الله يلعنك دنيا وآخرة.

"عبدو" كان طيلة الوقت غير مكترث، يدندن مع نفسه في ركن من زريبتهم أو يخرج وقت الفطور ليتجنب ذلك الحديث المعاد من قبل أبيه. كان الولد متمرداً ليس على أبيه فقط، بل على كل شيء كما قلت، لا يريد الاقتناع بشيء.

لم يكن الجوع والعطش هما اللذان جعلاني غاضباً، ناقماً على "عبدو" وعلى أبيه، بل حرماني من الخروج إلى البراري. كانت تلك أول مرة منذ سنين، أبتعد بها عن إناثي كل تلك المدة. امتد بي الغضب والحنق ودارت برأسي القرارات والنوايا على فعل شيء، لا

يتوقعه مني لا "أبو عبدو" ولا شيخه. لم أفكر حينها بالحمرنة، لأني أصلاً كنت مربوطاً ولم يطلب مني أحد شيئاً أفعله، كذلك كنت لا أريد أن أتسبب بأي أذى للبنت الطيبة التي كانت تحنو علي، كأن أعضها مثلاً حين تقديمها الأكل لي، لأثبت لهم حمرنتي. حتى جاء "أبو عبدو" ذات صباح مستبشراً ضاحكاً، وهو يصيح حال دخوله باحة البيت على بنته:

– يا بنتي! فكي الحمار وأعطه من شعير هذه السنة.. الدنيا عيد.. دعيه يحتفل مثلنا.. وهو يستأهل..!!

ثم التفت إلى الركن حيث كان الزنديق جالساً يقرأ كتاباً، لاهياً عن أبيه وبيت أبيه والعيد وشؤون العيد، لكنه رغم ذلك، وما أن سمع صوت أبيه، رمى لأبيه جملة يتيمة:

– عيدك مبارك يابه..!!

أجابه الأب على الفور:

– لا مبارك عليك.. الله يلعنك دنيا وآخره.. الحمار صام شهر وأنت غير قادر على صيام يوم واحد!!

رد الزنديق ولم تزل عيونه على الكتاب:

– يابه.. أنا خبرتك بالسبب.. قلت لك؛ أنا ليس لي نفس في الجنة. أنت لا تريد أن تصدقني. حرام عليك، ما ذنب هذا الحمار المسكين..؟

الآن صار يتعاطف معي الزنديق الخبيث! لكني أعرف أنه أراد استفزاز أبيه. تصاعد غضب وانفعال الأب وبدا لا يدري كيف يجيب ذلك الولد العاق المتمرد. واصل "عبدو" استفزازه:

– أرجوك يابه! أسأل الشيخ؛ ماذا يفعل هذا المسكين بثواب صيامه.. معلوماتي تقول أن الجنة ليست للحمير..!؟

بلغ انزعاج الأب من استهتار ابنه بالجنة والنار، أوجه ولم تعد تنفع معه كل وسائل الإقناع اللينة، لذا، لجأ إلى وسيلة إقناع صلبة ومجربة. بحركة مباغتة، نزع حذاء العيد الجديد من قدمه ورماه بقوة على ابنه..!! كان مسرى الحذاء بكعبه ونعله الصلبين ينبئ أنه سيحطم واجهة الولد الزنديق، لكن هذا وقد اعتاد على كل وسائل أبيه اللينة والصلبة، كان كما يبدو يتوقع قذيفة العيد، لذا مال عن مسرى الحذاء ولم يصبه. قام من جلسته، وضع الكتاب جانباً وظل يضحك كأي أهبل. بيني وبين نفسي كنت قد كرهت ذاك ال– "عبدو". بعد حين خرج من البيت، تشيعه لعنات ودعاوي أبيه، التي تريد أن تودي به إلى أسوأ مكان في الجحيم، مع الشياطين والأبالسة والزنادقة من كل لون.

ما كان يهمني من كل ذلك اللغو، أنهم أطلقوا سراحي أخيراً. خرجت من الزريبة بقرار لا رجعة فيه، هو الفرار. نعم قررت هجران "أبي عبدو" وزريبته، هجرة لا رجعة فيها. ومن ثم البحث عبر البراري البعيدة عن منافذ تأخذني خارج حدود الزندقة والكفر والقرف كله.

شهادة رقم (2)

جمهوريات الفوتوغراف الثلاثة

ثلاث جمهوريات متحادة. تتشابه بلغة البشر وملامحهم، بطرائق عيشهم ومشاكلهم، بفصائل الحيوان، بطبيعة وأنواع النبات، بحدية وتطرف الطقس القاري اللاهب صيفاً واللاسع شتاءاً. وبتلك الميزة الغريبة، غير المفهومة خارج إطار تلك الجمهوريات، هي لا وثوق البشر من إمكانية الاستمرار في الحياة، يوماً آخر أو قل ساعة أخرى، دون ابتهالات وتعاويذ وأدعية، تترى كل يوم لقدر أعمى، يجتث من دربه بمصادفات كثيرة ومتكاثرة، كل مغفل لا يؤمن بقدريته. لكن، وعلى الرغم من كل تلك المتشابهات، كانت الخصومة هي السائدة فيما بينهم. تجد بذرة العداء للطرف الآخر في كل شيء. خصومات أججت بينهم حروباً تناسلت أخرى وأخرى، في متوالية لا أحد يعلم كيف ومتى ستنتهي.

أنا شخصياً (الحمار هنا يتحدث عن نفسه) لم تكن تعنيني متشابهاتهم ولا خصوماتهم، ليتشابهوا، ليتخاصموا، ليهشموا عظام بعضهم، ليأكلوا بعضهم..إلخ كل تلك الشؤون البشرية، لا نشغل بها نحن الحمير رؤوسنا ولا حتى مؤخراتنا. ننشغل فقط حين يزجوننا في شؤونهم. سأحدثكم عن بعض من تلك الشؤون، التي شغلونا بها وكانت لذلك، هي سبب محنتي في منفاي الأول.

لقد توصلت وفي شيخوختي، أنه؛ لم يكن بوسع الحمير أن تفعل غير الذي فعلته، للحد من جنون وتقلبات ونزوات البشر. قولوا لي؛ ماذا بوسع أي حمار أن يفعل للبشر وهم يحولونه من مجرد حمار إلى حمار سياسي..!! وكأن أحمالهم التي أثقلوا ظهورنا بها، طوال سنين العِشرة غير المرغوب بها حمارياً، لم تكفنا، ليبتدعوا لنا حملاً جديداً.

بين عشية ونهارها، تحولت من مجرد حمار، إلى حمار سياسي..!! لا آمن على نفسي حتى وأنا في قصر رئاسي! لا تستغربوا! لقد وطأت حوافري حدائق وزرائب قصر من القصور الرئاسية في إحدى الجمهوريات الثلاث. ستأتيكم الحكاية لاحقاً. لكن دعوني أولاً أعرفكم، بماهية ذلك الشيء، الذي جن جنونهم به وتولهوا به حد الهوس، وأوصلني إلى ما أنا عليه الآن.

من بين كل اختراعات وإنجازات البشر، في العالم خارج حدود الثلاث الجمهوريات، تمسك الثلاثي الجمهوري باختراع وحيد، أدخلوا أنفسهم فيه وغدا جزءاً من تركيبتهم الثقافية والسلوكية. يبدو الأمر غريباً نوعاً ما، إذ يهملوا كل الخيارات المفتوحة أمامهم، ليحشروا أنفسهم بقارورة خيار وحيد..!! على فكرة! بشر تلك الجمهوريات ليسوا من تلك الفصائل المخترعة أو المنجزة. هم يستهلكون فقط ما تنجزه فصائل بشرية أخرى بعيدة عنهم. وكان الخيار أو الاختراع التحفة أو البلية هو الكاميرا والتصوير الفوتوغرافي.

حسب ذاكرة كبار الحمير من المحللين الاستراتيجيين، في الجمهورية التي غدوت فيها حماراً سياسياً، رغماً عن أنفي وأنف أجدادي بالطبع، دخلت الكاميرا حديثاً عليهم. لكنها ولسبب مجهول لأولئك المحللين، غدت وإنجازاتها وفي حفنة من السنين هي سيدة الحضور، محولة شعوب هذه البراري إلى شعوب فوتوغرافية بامتياز. حيثما وليت وجهك في شوارع ومساكن وزرائب تلك الجمهوريات تطالعك الكاميرا بمنجزها الفوتوغرافي. الصور في كل مكان. تجد صور الموتى والأحياء متجاورة على الجدران وفي الفراغات وعلى صحون الأكل وأقداح الشاي وعلى شراشف ووسائد النوم وحتى على الملابس الخارجية والداخلية. أينما تدور بطرفك، تطالعك عيون الصور مبحلقة، ضاحكة، صامتة، عيون دعج، عيون وساع، عيون خرز، عيون دائرية، عيون طولية، عيون عرضية، عيون سوداء، خضراء، زرقاء، عسلية، عيون جارحة، عيون ناعسة، ابتسامات، بوزات، حركات بهلوانية، أوضاع عسكرية، أوضاع رومانسية..الخ الخ في المجموع، كلها أشكال وحالات وأمزجة وإيحاءات، يحرص المواطن الفوتوغرافي على تأبيدها، جاعلاً الزمن يتكلس على هيئة تكشيرة أو ابتسامة أو وقفة عرجاء أو حصوله على شيء بعد رحلة بحث مضنية، وسام، ميدالية، شهادة مدرسية، كاميرا مذهبة..إلخ إلخ إلخ

في غضون تلك السنوات القليلة، تحولت الجمهوريات الثلاث، إلى سوق مثالي للشركات العالمية الكبرى وبيئة استثمار مضمونة

النتـائج. كانـت بورصـة الشـركات والمؤسسـات والوكـالات، التـي تتعـاطى شـؤون الكـاميرا والتصـوير، مـن أنشـط البورصـات الفاعلـة والرابحة على طول الخط. وبسبب الخصومات الدائمة بين الثلاثة، غدت البورصات واحدة من تلك الأسلحة التي يتبارزن بها.

ما زال كبار المحللين من الحمير، إذ تسألهم عن بدايات حروب الفوتـوغراف المتواليـة، يتـداولون ويتـذكرون تلـك الخطـوة الجريئـة، لـرئيس إحـدى الجمهوريـات ذات المـوارد المتوسـطة. الـذي قـرر وبمناسـبة عيـد مـيلاده الخمسـين، إصـدار مرسـوم رئاسـي، يمـنح بموجبه كل مواطن بلغ سن الرشد، كاميرا مجاناً، وعلى وزارة شؤون الرئيس تنفيذ الأمر.

خطوة على براءتها وتعبيرها عن كرم الرئيس تجاه مواطنيه، إلا أنها ولسبب كذلك مجهول بالنسبة للحمير، بدت خارج الحدود استفزازية وتصعيدية..!! حتى اعتبرها أحد المحللين العسكريين الخشنين من البشر، في إحدى تلك الجمهوريات وهو يرد بانفعال منقطع النظير، على سؤال المذيعة الفضائية ذات الشفاه الريانة مثل تينة مفلوجة: أنها شكل جديد من أشكال الخوزقة يا سيدتي الفاضلة!

لم ينتظر الرئيسان المعنيان بالخوزقة، نصيحة ذلك المحلل، سرعان ما شمَّا وبأنفيهما الحادي الذكاء، رائحة مؤامرة تفوح في الأفق. لقد أدخلوا المرسوم (التصعيدي) في مخابر التحليل والدراسة، لمعرفة المقاصد النهائية لتلك الخطوة غير المسبوقة. بعد حين، نجح أحدهما وهو رئيس الجمهورية الغنية الموارد وبمعونة لجنة خاصة

شكلها لذلك الغرض، في التوصل إلى تلك المقاصد الخفية وإلى خوزقة ذلك المغفل الذي حاول خوزقته. قرر الرئيس وبعد الاتكال على الله، الرد على المرسوم التصعيدي المعادي بمرسومين. مرسومان في آن واحد بدا فيهما الرئيس الثاني أكثر جرأة وكرماً من الأول؛ ناهيك عن اختياره التوقيت المناسب للرد. لقد اختار لضربته مناسبة من أهم مناسبات الجمهورية. إذ ستحتفل البلاد بالذكرى اليوبيلية الخامسة والعشرين لانتصار أب الرئيس الحالي، الذي نجح باسترجاع ثلث قرية من بين مخالب دويلة ذئبية مارقة، أذاقت رؤساء وشعوب هذه البراري، الويلات من الذل والقهر ممرغة أنوفهم في الوحل. كان الانتصار في تلك الغزوة عظيماً ولا شائبة فيه، ظلت البلاد تحتفل به على مدار السنين. على الرغم من أن تلك الدويلة المشاكسة والعصية على الإرغام، قد استرجعت الثلث المسترجع بعد تلك الغزوة بأقل من سنة. لكن النصر هو النصر، وعلى الشعوب تذكر انتصاراتها العظيمة ونسيان هزائمها.. ما علينا، هذه شؤون بشرية كان وما زال للحمير رأياً فيها. نص المرسوم الأول على منح المواطنين الراشدين كاميرات مجانية، تماماً كما فعل الرئيس الأول، وقرر في المرسوم الثاني، إضافة فقرة جديدة إلى الدستور المؤقت في حقل حقوق المواطن، تنص على: حق كل مواطن راشد الحصول على كاميرا موديل السنة ذاتها مجاناً، تسلم له بعد قضاءه خدمة العلم. وعلى وزارتي شؤون الرئيس والدفاع تنفيذ المرسومين.

خرجت البلاد والعباد على أثر ذينك المرسومين، بمسيرات ومهرجانات واستعراضات جماهيرية كبرى، احتفالاً بالنصر المؤزر باسترجاع ثلث القرية أولاً وبمكرمتي الرئيس الجديدتين ثانياً. ولم يقلل من فرحة الجماهير، التشكيك الذي أخذ يوسوس به بعض معارضي الرئيس، من أن الشرط الموضوع لتسلم الكاميرا الهدية، يعتبر ناسخ للمرسوم ذاته، لأن لا أحد في الجمهورية يزعم؛ أنه قادر على التنبؤ بالفترة التي سيقضيها الجندي الإلزامي في خدمته للعلم، منهم من قضى نحبه ولم تنقض خدمته للعَلم ومنهم من توكلوا على الله وتطوعوا ليجعلوا خدمتهم للعلم أبدية. كما قلت، ذلك التشكيك وعلى وجاهته لم يفسد احتفالات المواطنين، التي دامت أسبوعاً كاملاً، في حين لم تدم أفراح الجمهورية الأولى صاحبة التصعيد سوى يوماً واحداً.

ظل الرئيس الثالث في (حيص بيص)، ماذا بوسعه أن يفعل ليرد على هذين المغامرين!؟ دولته فقيرة قياساً لموارد الاثنين، وديونها بلغت أرقاماً تفوق دخلها الصافي لعدة أجيال قادمة. لكن، هذه التفاصيل لن تعن الشعب لأنه لا يعرف بها. أُعتبرت الديون والميزانية على الدوام من أسرار الدولة التي لا يجوز التحرش بها. الشعب ينتظر رد الرئيس على أعدائه بفارغ الصبر. كان التحدي كبيراً والخطوب ماثلة. هي للآن خطوب خارجية، لكن هذا لا يعني بقاءها خارجية إلى الأبد. لا بد من عمل شيء. المواطن لا يحتمل المزيد. حسب آخر استطلاعات جهاز الأمن الخاص بالرئيس،

ذكر؛ أن الشعب متململ ويريد الخروج إلى الشوارع. وإن لم تبادر الحكومة بأجهزتها المختلفة، لإخراجه إلى الشوارع بفرح منظم وسعادة مسيطراً عليها، سيخرج بنفسه، غاضباً، ناقماً، يكسر الدنيا على رأسه ورؤوسنا. وكان هذا هو مربط الخطوب في العملية التصعيدية كلها. هكذا فكر الرئيس، متذكراً أن زمناً طويلاً، قد مر على عدم إخراج الجماهير إلى الشوارع، في خطوة أُريد منها ترشيد النفقات. ماذا يفعل..؟ لم يكن أمامه من خيار آخر، لقد فاوضه الدائنون وظهره إلى الجدار. كانت الجلسة الأخيرة مع صناديق الدين العالمي، قصيرة إلى حد لم يكملوا شرب قهوتهم. قال كبيرهم للرئيس وهو يتكلم بإصبع السبابة: أما ترشيد نفقات الاحتفالات الشعبية الرسمية أو رفع الدعم عن الخبز.. عليك الاختيار. انفض الاجتماع بعدها ووجد الرئيس نفسه في الواقع أمام اللاخيار، لأن الخبز كان خط الشعب الأحمر منذ زمن بعيد. "الله يلعن هذين المغفلين اللذين لا يملان من اللعب.." –قصد الرئيسين الآخرين– ".. ما نحتاجه جميعاً هو الهدوء، جر الأنفاس". لم يطل التفكير بالرئيس الثالث طويلاً، شكل خلية أزمة، من أذكى وأمهر وأبرع مساعديه وأعطاهم مهلة أسبوع، ليخرجوا عليه باقتراح الرد المناسب. دخلت الخلية في دهاليز المشاريع والبدائل وقبل انتهاء المهلة بساعتين، جاءه رئيس الخلية، لاهثاً، سابحاً في عرقه وبعيون مدماة تحيطها دوائر سوداء متكاثرة من قلة النوم. عرض عليه

أفكاراً لم تنقصها الجرأة فقط، بل ستكون من نوع رد الصاع بثلاثة صاعات.

لقد تحمل الرئيس مسئوله الأزموي برباطة جأش، نادراً ما يتعامل بها مع مرءوسيه، لكنه خبر هذا المسؤول منذ زمن بعيد، أنه من النوع الذي لا يلف ولا يدور، بل يذهب مباشرة إلى هدفه دون مقدمات، لذلك تأتي بعض تداخلاته استفزازية، كما حدث الآن في هذه المحاورة:

– سيدي العظيم! لا حل أمامنا سوى وزارة الدفاع!!

قال جملته تلك وسكت. بدا الفزع واضحاً على ملامح الرئيس، حتى أن يده تحسست لا إرادياً مسدسه. لأن هذه الوزارة مع وزارة المالية ووزارة شؤون الرئيس ووزارة الأمن سُميت بالرباعي ذي الأسنان والأنياب والمخالب، قد جعلها الرئيس خطوطاً حمراء على الجميع، لا يسمح لكائن من كان، أن يتناول شؤونها إلا بأمر منه. سأل على الفور وبغضب:

– ماذا تقصد بوزارة الدفاع؟

– سيدي العظيم! تقتطعون من ميزانية الوزارة، المبالغ المخصصة لتطوير أنظمتنا الصاروخية!!!

أنهى جملته، إنما ملامح وجهه غلفها التعب والخوف بالكامل. أراد أن يأخذ لنفسه نفساً، ليتهيأ لقول التالي. المسكين لم ينم منذ ثلاثة أيام بلياليها. عدا أن الحالة الطبيعية لأي مسؤول يقف بين يدي الرئيس، حالة لا يحسده عليها أحد، يكون مربكاً، خائفاً، قلقاً،

متردداً، غير واثقٍ من موضع رأسه بعد اللقاء و لا شيء يعيده إلى حاله غير لفتة ابتسامة من الرئيس. لكن، بعد سماع الرئيس لجملة مسئوله الأزموي الطويلة نسبياً والخطرة بالطبع، أخذته على حين غفلة صفنة، وجد نفسه يحادث نفسه في أمر هذا المسؤول، تأكد له، أنه اختار رجلاً أرعناً ومجنوناً على رأس أخطر لجنة أرادها لحل مشكلة عويصة. عاد المسؤول ليواصل حديثه على الرغم من غياب الرئيس في الصفنة:

– سيدي العظيم! بتقدير أعضاء خليتي، ستكون تلك المبالغ كافية لتمويل مشروع الرد الحاسم على الأعداء.

خرج الرئيس من صفنته وهو يمسد شاربه، مطلقاً بين الفينة والأخرى، همهمة تشعر الرجل الواقف أمامه أنه على وشك أن يغضب عليه بالغضبة القاضية. لكن، وعلى غير توقع تبدلت سحنة الرئيس وتحولت أساريره من الغضب إلى الرقة ولين الحاشية، حتى أنه طلب من المسؤول المتخشب أمامه أن يجلس:

– أجلس! ستجيبني على بعض الأسئلة.

جلس المسؤول الأزموي. فكر أن يمسح جداول العرق السائلة على علباته المسطحة ووجهه الدائري والتي أخذت تسيل عبر ممرات ملتوية، على ظهره وبطنه لتتجمع بين فخذيه وعند مفرق عجزه، لتشكل هناك بقع متكاثرة من الدبق ذي الرائحة الكريهة، لكنه تذكر أن المسح بحاجة إلى مد يده في داخل سترته المبطنة لإخراج

المحرمة، وهذه من الممنوعات، أية حركة زائدة هي ممنوعة بأوامر صريحة من جهاز الحماية. سأله الرئيس:

– ما هو مشروع الرد؟

أجاب المسؤول بلكنة ما زالت متخشبة، إنما يشوبها شعاع من الانشراح، لعله كان واثقاً من رد فعل الرئيس وإعجابه بما سيقول:

– سيدي العظيم! نقترح أن تصدرون ثلاثة مراسيم رئاسية. تقررون في الأول منح كل مواطن راشد كاميرا مجاناً، وتضيفون في الثاني فقرة إلى الدستور المؤقت، تنص على أحقية المواطن الراشد بكاميرا سنوية من الرئيس. أما المرسوم الثالث وهنا ستكون ضربتنا الموجعة للأعداء ينص على مجانية عمليات التحميض.

رفع الرئيس حاجبيه، شنف أذنيه وبدا على وشك الدخول في صفنة جديدة، لا تحمد عقباها هذه المرة، لكنه لم يدخلها أو قل خرج سريعاً منها. قام من مقعده وأخذ يقهقه بكركرات، مغزاها غير واضح بعد، إن كانت عطفاً أو سخرية من مسئوله الأزموي. وصل إلى حيث يجلس المسؤول وصار يربت بلطف على كتفه، مادحاً إياه:

– بورك عقلك. هذا هو الرد. نعم، ثلاثة مرة واحدة. لكن، لم تخبرني بعد؛ ماذا سنفعل ببرنامج تطوير الصواريخ؟

أجاب المسؤول بلكنة طغت عليها إمارات الإنشراح واليقين من إعجاب الرئيس بمواهبه:

– سيدي العظيم! تصدرون مرسوماً رابعاً، إنما بعد حين؛ ينص على زيادة مخصصات برنامج تطوير الأنظمة الصاروخية!

نكص الرئيس على عقبيه، كمن لُدغ ووضع كفه فوق عينيه وهو يحدق، في هيكل المسؤول ذي الجسد المدور الغاطس في المقعد، وكأنه يراه من بعيد، بل صار لا يراه ويحاول البحث عنه. همهم بصوت بالكاد خرج من شفتيه:

– اسمع! ما زالت فيَّ بقايا صبر ادخرتها خصيصاً لك. فك لي هذه الأحجية! كيف نقتطع من جهة ونزيد من جهة أخرى..!؟

رد المسؤول وقد تغلب الانشراح على خشبيته بالكامل هذه المرة، حتى بان ظل ابتسامة على شفتيه المزمومتين:

– سيدي العظيم! أحد لن يمد يده إلى الخزينة في كل هذه المراسيم الثلاثة..

قاطعه الرئيس، وبدا مستعجلاً:

– أوضح بسرعة!

زالت خشبية رئيس خلية الأزمة نهائياً. لكنه طرد ظل الابتسامة الدخيل وزم شفتيه، مستعداً لإسماع الرئيس ما يريحه أخيراً:

– سيدي العظيم! بالنسبة لتوزيع الكاميرات، ستتكفل به إحدى الشركات العالمية، المنافسة للشركتين اللتين وزعتا كاميرات أعدائنا، ستبيعنا بسعر مدعوم، وهذا هو المبلغ الذي ستقطعه من ميزانية وزارة الدفاع. وبالنسبة لتوزيع الكاميرات المشروطة بخدمة العلم، عند التسريح من الخدمة العسكرية، ستُدفع أثمانها من قبل المستفيد، وبطريقة غير محسوسة. سيدفع كل متسرح قبل استلامه وثيقة براء الذمة، مبلغاً من المال، عن كل يوم غياب في خدمة العلم بدل

السجن كما هو جار اليوم. وحسب معلوماتنا، لم يولد بعد في الجمهورية ذلك الجندي الذي لن يغيب أو يهرب من خدمة العلم. أما التحميض المجاني، نسترجع ثمنه من تبرعات الشعب. سيجد كل من يريد تحميض فلمه، إعلاناً يفقأ العين؛ يقول: أخي المواطن الشجاع.. ساهم بالتبرع لاسترجاع الأرض السليبة. وسنختار مع الإعلان صوراً مؤثرة لشعبنا المحتل هناك.

قاطعه الرئيس:

– كفى! ابحث الأمر مع وزير شؤون الرئاسة. لكن، ماذا بخصوص المرسوم الرابع؟

– سيدي العظيم! أننا نخوض صراعنا مع الأعداء بأسلحة عديدة، إنما من بين كل الأسلحة المجربة، كان سلاح المفاجأة هو الأمضى والأكثر إرباكاً. خصوصاً حين تكون تلك المفاجأة مغلفة بغموض. كل حصيلة تجسسهم تفيد أننا دولة فقيرة الموارد، قياساً لمواردهم وإمكانياتنا الدفاعية والهجومية، هي على قدر مواردنا المتناقصة. المرسوم الرابع سيكون فعله فعل سلاح جديد، ستكمن قوته في غموضه بالتحديد. سيأخذ منهم الكثير من الوقت والجهد لمعرفته والرد عليه. ليس بعيداً أن يسارعوا إلى زيادة ميزانياتهم العسكرية، مما سيرتب عليهم ضغوطاً جديدة. قد يصلون في النهاية إلى الحالة المالية التي نحن عليها الآن. لكننا، سنعمل من جهتنا على إطالة أمد ذلك الوقت وعرقلة الجهد الذي سيكتشفون فيه فحوى المرسوم الرابع، بإصدار تعليمات رئاسية ووزارية إلى كل المؤسسات

والــوزارات لتنفيــذ مشــروع الــرئيس (المرســوم الرابــع). عناصــر استخباراتهم ستنقل لهم ما يقع تحت يدها من وثائق وأخبار، ستكون كلها رسمية لا غبار على صحتها وجديتها، بالإصرار على تنفيذ المرسوم. سنحتاج كذلك إلى تفعيل جهاز مخابراتنا وفق هذه الخطة الجديدة، كلما كانت وسائلنا أكثر تشويشاً وإرباكاً لهم، رفعنا من فعالية سلاحنا الجديد. سيكون المرسوم الرابع، هو سلاحنا الجديد الذي سيتفوق على صواريخهم. كما ترى، سلاح لا يكلفنا غير تفعيل وسائلنا الموجودة أصلاً على الأرض. باستثناء قضية واحدة أنا شخصياً أتوجس منها، لكني واثق من حنكة سيادتكم على حلها. القضية تتعلق بوزارة المالية. يجب على وزارة المالية أن تكيف نفسها لإعداد ميزانيتين؛ الأولى هي ميزانية الدولة الحقيقية، التي ستكون أكثر سرية هذه المرة والثانية تكون شبه علنية ومرنة وقادرة على التكييف وفق احتياجات السلاح الرابع أقصد المرسوم الرابع، تقدم على أنها ميزانية الدولة.

والمسؤول يواصل طرح أفكاره وتوقعاته، تكاثرت قهقهات وابتسامات الرئيس التي منحها له. وبعد أن خلص المسؤول، قال الرئيس بصوت خافت كأنه يحدث نفسه:

– هكذا، سنواجه صواريخهم بالمراسيم..؟

ضحك بصوت عال وسأل المسؤول المدور الغاط في مقعده:

– هل سمعت يوماً بشيء اسمه مراسيم مضادة للصواريخ..؟

رد المسؤول بسرعة وكأنه كان ينتظر السؤال:

– سيدي العظيم! سوف لن يكون الحال أخطر مما نحن عليه فعلاً. كما يعرف سيادتكم، الاثنان جربا أجيالاً جديدة من الصواريخ، بينما نحن ما زلنا في البدايات. سباق التسلح مع الفارق في الموارد، لن يوصلنا إلى شيء. علينا أن نسحبهم إلى ساحة ملائمة لنا لخوض الصراع. سندخلهم في سباق جديد، نكون فيه نحن المبادرين على طول الخط.

ما زال الرئيس يمنح مسئوله الأزموي، الكثير من الابتسامات التي أدخلت الدفء والرضا عن النفس في دواخل الرجل. وحين صرفه، مدح مرة أخرى ذكاءه وفطنته وشيعه مودعاً حتى باب المكتب. هناك وهو يدفعه بيده، قال له:

– غضب الله عليك وعلى الأمة التي أنجبتك.

ثم عاد إلى مكتبه، مكافئاً نفسه بضحكة ذات نوتة عالية وطويلة. سمعها الرجل المقذوف به خارج الباب، ولم يفهمها إن كانت سخرية منه أو هي تعبير عن الامتنان له، كما لم يفهم على وجه الدقة جملة الرئيس الأخيرة، إن كانت مدحاً أم ذماً. لكن الرئيس، اعتاد أن يمدح مرءوسيه عبر قلب الأمثال والأقوال الشائعة وإسقاط اضدادها على رؤوسهم.

من اللمحة أعلاه، عرفنا مدى الأهمية التي كان يوليها رؤساء الجمهوريات الثلاث، وكذلك مواطنوهم لشؤون الفوتوغراف. كان للفوتوغراف فعل السحر في إدارة شؤون الجمهوريات. ولتوضيح أهمية ضربة الرئيس الثالث في مرسومه الثالث، مرسوم مجانية

التحميض لا بد من إلقاء نظره أخرى، سريعة أيضاً، على تاريخ وملابسات عملية تأميم المختبرات.

تأميم المختبرات

بسبب الكثرة الكاثرة للكاميرات وإغواء التصوير، الذي تمكن من المواطنين، كان لا بد من أنظمة وتشريعات ومؤسسات لإدارة وضبط وتنظيم ذلك العمل الضخم. لكن، أهم قانون شرعته الجمهوريات الثلاث بالتناوب كان قانون احتكار الدولة للمخابر.

في يوم من الأيام، تفتقت قريحة أحد المستشارين الأوفياء لرئيس الجمهورية ذات الموارد القليلة، ليشير عليه بإصدار قانون التأميم العظيم. قال ذلك المستشار:

– سيدي العظيم! هناك بوادر أزمة تلوح في ثنايا عملنا. صحيح أنكم أنعمتم على مواطنينا بنعمة حرية التصوير، إنما للحرية حدود. لا يخفى عليكم وأنتم معلمنا أن من بين المواطنين من يكون مشاغباً ومتمرداً بطبعه. تصلكم أخبار عن مواطنين يستغلون التصوير لأغراض غير أخلاقية، منها على سبيل المثال؛ ظاهرة انتشار تصوير مشاهد فضائحية للجسد الإنساني، بالأخص أجساد الحريم وهناك من العملاء والخونة من قاموا بعمليات مزج صورة بأخرى، ليخرجوا بصورة جديدة لزوجات مسئولي الدولة، في أجواء وأوضاع داعرة، أثارت الرأي العام. لم يشأ المستشار الوفي أن يذكر رئيسه بتلك الصورة الشهيرة، التي منتجتها استخبارات إحدى الجمهوريات العدوة وفيها الرئيس مع أحد مساعديه في وضع لا يحسد عليه،

الصورة التي كادت أن تشعل حرباً ضروساً بين الجمهوريتين. لكنه، عرج بدل استذكار تلك الفضيحة، على ظاهرة انتشار صور المعارضين الخونة واستغلال بعض المشاغبين لمهاراتهم المونتاجية، بتركيب رأس الحمار على جسد الرئيس أو أحد وزرائه بين الحين والآخر.

أنا شخصياً كحمار –استدرك الحمار– لم أفهم بعد لماذا يوافق الرئيس أن يدخلوا رأسه في فروة أسد أو نمر أو ذئب أو فهد أو أي حيوان متوحش آخر، ويعرضون الصورة على الملأ في الساحات العامة وعلى واجهات مباني الوزارات، لكنه، لم يوافق بل يستنكر أن يؤطر رأسه برأس حمار..؟ رغم أن الاثنين من فصائل الحيوان..!! أليس هذا محيراً يا أصدقائي في السلوك البشري...؟

نحن كنا مأخوذين بسرده، لذلك لم يشأ أي منا الرد على سؤاله المشروع. حرك رأسه صعوداً وهبوطاً مع تكشيرة خفيفة، أفهمتنا أنه فهم حيرتنا. عاد إلى سرده:

– لا عليكم، لنواصل ما كنا فيه. لقد واصل ذلك المستشار استشارته أو نصيحته لرئيسه قائلاً: ما زالت الحمير تتسبب بالكثير من اللغط في الخارج والكثير من الجهد لمؤسساتنا الأمنية. أرى من واجبي الوطني، أن ألتمس من سيادتكم، وضع لمستكم الشافية للخروج من هذه الأزمة.

خلال الحديث كان الرئيس واقفاً. على عادته، حين يشم في حديث أحدهم رائحة خطورة على هيبة الدولة، يهب من مجلسه ويظل

واقفاً وراء مكتبه. بدا صافناً في وقفته، غير أن عيونه تقول أنه كان يتابع حديث المستشار. سكت هذا. لعله أراد التأكد أن الرئيس معه، أو لإعطاء حديثه القادم وقعاً يتمناه على الرئيس. بعد طول انتظار، خرج الرئيس من صفنته وسأل:

– كل هذا اللغو أعرفه. ماذا لديك غيره؟

– نعم سيدي. أقترح سيدي العظيم: أولاً، إيقاف حملة إبادة الحمير، لأنها جلبت لنا نتائج عكسية وسببت الكثير من المشاكل مع المزارعين والعتالين في الأسواق، عدا مشاكلنا مع مؤسسات حماية الحيوان الدولية وحتى مع الأمم المتحدة نفسها. ثانياً، أقترح؛ وبدلاً من هذه الحملة، إصدار مرسوم تأميم مختبرات التحميض!!

رفع الرئيس رأسه مقطب الجبين وهو ما زال على صفنته، فقط أن ملامحه وشت بعدم فهمه لما قاله المستشار.. سأل مستشاره:

– ألا تخبرني ما علاقة الكبة بالأمم المتحدة..!؟

أجاب المستشار بسرعة وكأن الجواب كان على طرف لسانه:

– نعم سيدي العظيم، لو أممنا مختبرات التحميض، سنمنع مشاغبات وتخرصات كل الأعداء إن كانوا في الداخل أو في الخارج. الصورة بدون تحميض لا أثر لها.

همهم الرئيس مع نفسه. هش وبش مهوماً بيديه بحركات عشوائية. كشر عن أسنانه البيضاء المصفرة من كثرة التدخين وشرب القهوة، ثم ضحك. كان ضحكاً متدرجاً من أوطأ نوتة إلى أعلاها. استغرق

في الضحك طويلاً، حتى هدأ وعاد من جديد إلى الهمهمة. قال كأنه يسأل نفسه:

– كيف فاتتنا مثل هذه الجوهرة كل هذه السنين؟

جلس وهو ما زال يضحك بطريقة الهمهمة، سحب ورقة رئاسية وقلماً رئاسياً وقدمهما للمستشار، الذي كان واقفاً على الجانب الآخر من مكتب الرئيس:

– اجلس! اكتب مرسوم التأميم ومعه مرسوم آخر بتشكيل وزارة جديدة نسميها وزارة شؤون التصوير، ترتبط بالرئاسة مباشرة وستكون أنت الوزير وعليك في غضون أسبوع تقديم خطة عملكم. لا أريد ثغرات هذه المرة. أما موضوع الحمير، فدعه جانباً الآن! سأصدر به تعليمات داخلية بالتخلي عن الحملة تدريجياً، كذلك سنرضي بعض الفلاحين بشيء من التعويض. أكثر من هذا، ورداً على الحملات الخارجية المعادية، سأوعز بتأسيس جمعيات لحماية الحيوان في بلدي، على الأخص الحمير منها، ليأتي قرار إلغاء الحملة فيما بعد، كأنه استجابة لالتماس تلك الجمعيات الوطنية لا لتلك الضغوط الخارجية.. هل تفهم ماذا يعني هذا..؟

رفع المستشار وجهه بملامح استفهام. رد عليها الرئيس:

– هذا أمر يتعلق بالسيادة يا غبي!!

تفاجأ المستشار بالطبع من هذه اللدغة، لأنه لم يقل شيئاً يعكر السيادة ولم يعترض أصلاً، غير أن الرئيس هو الرئيس ولا أحد فوق

الرئيس. ضحك المستشار لغبائه وأكد بملامحه المنشرحة هذه المرة، أنه الآن فهم.

سرعان ما قامت الجمهوريتان الأُخريتان بذات الخطوات. أممت مختبراتها وشكلت وزارات لشؤون التصوير. لكنها لم تكن قادرة على ملاحقة كل الخطوات بذات الوقت، على الأخص ما تعلق منها بالحمير وجمعيات حماية الحيوان، لذلك هي تأخرت في إلغاء قوانينها الخاصة بإبادة الحمير وفي تشكيل جمعيات حماية الحيوان.

كان رئيس الجمهورية صاحب المبادرة، أكثر الرؤساء الثلاثة إثارة للجدل والمشاكسة. كثيرا ما يخرج على خصومه الخارجيين والداخليين بمبادرات وردود غير متوقعة. أشتهر عنه ذكاؤه وحنكته السياسية في إدارة أزماته، كذلك خبرته في اختيار المساعدين، عدا عن طريقته الخاصة في احتواء المخالفين والمتمردين، طريقة لا تنتمي للانفعال المباشر، رغم عدم بخله عليهم بالقوة والبطش، لكنها تنتمي إلى شيء يشبه أن "تعطي أحدهم مسدساً وتدعه يقتل نفسه بنفسه".

بالمناسبة هذه الجملة كثيراً ما يكررها على مساعديه، حين يطلب منهم تصفية أحد الخصوم: – اجعلوه يحل مشكلته بنفسه.!!

كان قرار إلغاء حملات إبادة الحمير مكسباً حميرياً محضاً. لكن، تأميم مختبرات التحميض كان نقمة على البشر، على الأخص المعارضين منهم. لم يعد التحميض ملكاً مشاعاً للمواطنين، بالتبعية تم تعديل قانون العقوبات، بتشريع عقوبات تتدرج في قسوتها لكل

مواطن يخفي جهاز تحميض، إن كان بدائياً أو متطوراً. ثم دخلت حوامض التحميض تحت بند المواد الخطرة والمحظورة. كذلك مُنع جيل كامل من الكاميرات من اختراق أسوار الجمهوريات الثلاث، تلك الكاميرا التي تسمى بـ(الكاميرا الفورية). شُنت حملة لمصادرة مخزوناتها في الأسواق وفي البيوت. وأُعتبر استخدامها بعد التأميم والتشريعات الجديدة، خروجاً صريحاً على القوانين التي تحرم على المواطنين التحميض الشخصي.

كانت ردة فعل المواطنين على قرار التأميم عدائية، بل أحرجت الدولة أمام الرأي العام العالمي. إذ حدثت أعمال شغب ومظاهرات، حصلت على أثرها صدامات مع الشرطة والجيش، قُتل فيها من قُتل وزج بالكثيرين في السجون. لكنها ككل هياج جماهيري عفوي، يصل إلى مدى معين، ثم يأخذ بالهبوط. خصوصاً، وأن الجماهير وفي الثلاث جمهوريات، كانت على الدوام مسيجة بمخالب وأنياب وأسنان الدولة. ليتلاشى الأمر بعد بضعة شهور، بصدور قرارات عفو رئاسي عن المسجونين، بشرط التوقيع على وثيقة تعهد، يعلن فيها المواطن تعهده بالامتناع عن جلب أو المساهمة في جلب جهاز تحميض أو التعامل مع الحوامض الداخلة في العملية، وإلا سيدفع رأسه ثمن النكوص عن هذا الإقرار. وقع أغلب المساجين على القرار وخرجوا، باستثناء بعض أصحاب الرؤوس الناشفة التي عولجت في حينها.

كذلك فُرض على من يفتح استديو تصوير خاص، أن يوقع على تلك الورقة، التي تمنعه من جلب أو استعمال جهاز تحميض أو حوامضه. أما ردود الأفعال الخارجية فكانت متفاوتة في حدتها. اعتبرت بعض المنظمات الدولية، ومنها صندوق النقد الدولي، أمر التأميم تدخلاً سافراً من الدولة في الشؤون الشخصية للأفراد، نظرت إليه من زاوية حقوق الإنسان، لما فيه من عدوان على الحرية الشخصية والملكية الخاصة كأي تأميم. كان ذلك غير بعيد عن تحريض الشركات الكبرى التي كانت تعمل في بورصة الجمهوريات الثلاث، ستُحرم من مورد استثماري مضمون، كانت لها مخابر عملاقة في كل أرجاء الجمهوريات. عولجت تلك المواقف والحملات بطريقتين؛ الأولى ديبلوماسية، حيث ردت الجمهوريات الثلاث وبنبرة واحدة هذه المرة: أننا نعتبر تلك الدعوات والمواقف الدولية، تدخلاً سافراً في الشؤون الداخلية لبلد مستقل وعضو في هيئة الأمم المتحدة. كان ذلك الموقف المعتصم بحبل الميثاق الدولي، كفيلاً بجعل الدعوات والتصريحات والمواقف العدائية لخطوات التأميم، يخفت بريقها تدريجياً ويندثر أثرها المادي على السياسات، التي تتعامل بها كل جمهورية مع مواطنيها. الطريقة الثانية في العلاج، كانت تعويض الشركات الكبرى من نوع العابرة للحدود، بتعويضات مناسبة على شكل صفقة، سمحت الدولة بموجبها للشركات العالمية بالتعاقد معها، بنسبة لا تتجاوز الـ49%، في مشاريع مخابر

التحميض العملاقة. تقدم الشركات تقنيتها وخبراتها المهنية وتقدم الدولة خبراتها الأمنية لتلك المخابر.

لقد كسبت الدولة من قرار التأميم الكثير من الموارد المالية، بإخضاع الإستيراد إلى مركزية وطنية شاملة. عدا عن تشغيل مئات الألوف من الأيدي العاملة في المطابع ومخابر التحميض ودور النشر والتوزيع ومدارس النحت والرسم ومؤسسات بحوث وشرطة الفوتوغراف، ناهيك عن استديوهات التصوير الخاصة، المنتشرة في طول البلاد وعرضها، لكنها الخالية بالطبع من أي جهاز تحميض.

صحيح أن كل تلك المؤسسات لم تكن إنتاجية، بمعنى أنها لا تراكم ثروة، لكنها على أية حال، كانت تداور الثروة داخل البلد، وتستجلب كذلك استثمارات خارجية.

سارت شؤون الجمهوريات الثلاث، بعد قرارات التأميم التاريخية سيراً حسنا. لقد ضبطوا أعمال التمرد والشغب وعزلوا نشاطات المعارضين، بل كادوا أن يقضوا عليها قضاء مبرماً، لولا تلك الخصومة المستعرة فيما بينهم والتي تسمح بعبور صور المعارضين المحمضة في مخابر الجمهورية الأخرى. رغم أنهم جمعياً وفي هذا الشأن كانوا في الهوى سوا.

برزت إلى السطح بعد حين، ظاهرة المكارم الرئاسية والوزارية. بين الفينة والأخرى تُمنح كاميرات من ماركات معينة، مصنوعة خصيصاً لوزارة شؤون الرئيس، تكون مؤطرة بحافات مذهبة وعليها الصورة الرسمية للرئيس. توزع لمواطنين يتم اختيارهم وفق مناسبات

وأحـوال خاصـة. مكـارم كانـت تأخـذ حيـزاً مـن بـرامج التلفزيـون والصحف والإذاعات ومن وقت المواطن.

مـن نافلـة القـول، أن الدراسـة فـي مـدارس وجامعـات الجمهوريـات الثلاث، قد انتابها ذات الهوس الفوتوغرافي. لقد فُرض علم التصوير (هكذا دعوه)، درساً أساسياً حتى في المدارس الابتدائية. يتدرج معه الطالـب إلـى الجامعـة، لينـال عليـه حسـب كفاءتـه ونباهتـه، درجـة علمية من نوع تلك الدرجات التي تبدأ بـ(دبلوم بسيط) وصولاً إلى (دبلوم رئاسي). الدبلوم الأخير لا يصله حسب منطق الأشياء في تلك الجمهوريات، إلا القليلون من أصحاب الذهن المتوقد والحظوة وشروط كثيرة أخرى لا أريد أن أزعجكم بتعدادها. يكون الحاصلون علـى (دبلـوم رئاسـي)، موقوفين للعمل فـي مؤسسـات الدولـة الأمنيـة العليـا وعـدد قليـل مـنهم يتـأهلون لخـوض مضـمار دراسـي أعلـى، ينـالون فـي حـال اجتيـازه، درجـة أطلقـوا عليهـا مسـمى (مصـور الـرئيس). تقـع علـى عـاتق مصـوري الـرئيس فـي الحقيقـة، مسؤولية فيها من الخطورة، أكثر مما فيها من الامتياز، عليهم الإبداع في صناعة صور الرئيس، صور رئاسية تكون جديرة بمنافسة صور الأعـداء وقـادرة علـى دخـول معمعـة الصـراع الـداخلي والإقليمـي، المحتدم فيما بين الجمهوريات الثلاث وبينها فرادى وبين تلك الدويلة الذئبيـة الصـغيرة، التـي تكـاد لا تـرى علـى الخارطـة، لكنهـا، رغـم صغرها قد أخصت رؤساء وشعوب الجمهوريات، أيما إخصاء، على طول الخط، باحتلالها لمثلثات ومربعات ومستطيلات كبيرة وصغيرة

من هذه الجمهورية أو تلك، مع عجز الجميع عن استرجاع المحتل. لهذا السبب كان مصورو الرئيس مواطنين فدائيين حاملين رؤوسهم على أكفهم. الويل لمن يفشل في الصراع الإقليمي، سيُذهَب بجلده إلى ستين دباغ من دباغي مديريات أمن الرئيس. لكن بالمقابل كانوا يحصلون على مكافآت وأجور عالية جداً، ناهيك عن امتياز مصور الرئيس، الذي يحسدهم عليه أقرب وزير للرئيس. من الوزراء من كان يتمنى لو يحصل على تلك الدرجة العلمية العالية في شؤون التصوير، ليدعم مركزه في وزارته. لذلك كانت هناك مواصفات خاصة، يتم على أساسها اختيار أولئك المرشحين لنيل أعلى شهادة في البلد.

من النتائج الجانبية لذلك الهوى الفوتوغرافي، أن أزدهر ليس فن التصوير أو علم التصوير فحسب، بل ازدهر إلى جانبه فن النحت كذلك. أخذوا ومن فرط إعجابهم بالصور باختيار الناجح والمميز منها، ليعملوا منه جداريات كبيرة وصغيرة حسب الحاجة والمناسبة. جداريات أخذت مواقعها في أجمل زوايا وساحات وشوارع المدن والبلدات. هذا الأمر كان في البدء خاصاً فقط بصور الرؤساء المشهورة، إنما وبمكرمة إضافية وافق الرؤساء مسحوبين كذلك بمشاكسة رئيس الجمهورية الأفقر بينهم، على خصخصة هذا الاحتكار، سمحوا للأشخاص كذلك، أن يعملوا لأنفسهم جداريات، لكن، في البيوت والمزارع الخاصة بهم فقط. غدا باستطاعة أي مواطن يدفع رسوم (نصب جدارية) لوزارة شؤون التصوير، أن

يحصل على إجازة النصب، بعد أن تكشف على موقع النصب لجنة خاصة من الوزارة. وكانت هناك عقوبات قاسية، تنتظر من يتجرأ على عمل جدارية خاصة به ويضعها في ساحة عامة أو شارع مهما كان صغيراً، عقوبات كان أرحمها الإعدام. استفاد من المرسوم الأخير علية القوم وأغنياؤهم. بالتأكيد ليس كل من هب ودب قادراً على دفع رسوم النصب ومن ثم البناء.

بسبب ازدهار الحملة الجدارية، شكلت وزارة شؤون التصوير مديرية خاصة وبقانون خاص لها، سمي (قانون الجداريات). كان التعيين والعمل في درجاتها الوظيفية وفي فروعها في المحافظات، يخضع لفلتر مشابه لفلتر وزارة شؤون التصوير، لا يُقبل من المواطنين سوى الذين تتم تزكيتهم تزكية خاصة، من قبل أثنين من موظفي وزارة شؤون الرئيس. كانت مهمة المديرية الجديدة، اختيار الجدارية المناسبة في المناسبة المناسبة.

كذلك ازدهرت ظاهرة المعارض الفنية، رغم تحولها في مجملها إلى معارض صور. لقد هاجر الكثير من الفنانين التشكيليين في الجمهوريات الثلاث إلى منافٍ بعيدة، بعد أن بارت بضاعتهم. لهذا السبب، استغل الفراغ الفني ما تبقى من زملائهم، مخترعين فناً جديداً أطلقوا عليه مسمى (الرسم بالصورة). انغمسوا في الفن الجديد، لأنه جلب لهم الكثير من الامتيازات، خصوصاً حين يكون الرسم بالصورة، المعني به صور الرئيس. حتى أصبح من شروط

نجاح الفنان في الأكاديمية العليا للفن، ومهما كان اختصاصه، أن يجيد التصوير.

أزدهر بالتبعية فن التصوير السينمائي والتلفزيوني. هذا القسم تم نقله لاحقاً من وزارة الإعلام إلى وزارة شؤون التصوير. أصدرت له تعليمات خاصة ومواصفات خاصة بالمتقدمين. في كل الأحوال، أن خطوة التأميم الجبارة جعلت الوزارة تسيير أعمال أي قسم جديد بذات السهولة والسيطرة. لم تبق لديها خشية من تمرد في أي جهاز، طالما التحميض بأيد أمينة. من إنجازات قسم السينما والتلفزيون، عمل أفلام وثائقية حول معارض صور الرئيس وأخرى طويلة حول مسيرة الرئيس وأب الرئيس وجد الرئيس وصولاً إلى جد بعيد، قيل أنه كان أصل هذه السلالة الرئاسية. إضافة إلى ازدهار وتطور فن كتابة سيناريوهات المسلسلات الطويلة، وكانت في الغالب مسلسلات تصب في ذات الهوى الفوتوغرافي. من نوع ذلك المسلسل الطويل الذي دام عرضه أكثر من سنتين، عن زوجين سعيدين من علية القوم، حصل بينهما الطلاق في وسط المسلسل بسبب صورة أو جدارية بيتية، تخلل المسلسل بالطبع مغامرات وطلاسم بوليسية فيها قتل ودماء وبلاوي كثيرة، ليعودا في نهاية المسلسل إلى القفص مرة ثانية في وفي أيديهما كاميرات هدايا وصور هدايا، أكيد بعد إصلاح الخلل الفوتوغرافي بينهما.. أو عن شاب عاطل عن العمل يفشل في كل المجالات، ثم يكتشف وبالصدفة أن في نفسه موهبة تصوير خارقة، عندها يتدرج في

المراتب والمناصب ليصل إلى مصور الرئيس.. أو عن خطيبة حائرة أمام صويحباتها بسبب رفض خطيبها ترتيش صورته، هو يريدها طبيعية وهي تراها قبيحة يجب ترتيشها.. مسلسلات وأفلام عن صراع الأجيال بين أبناء وبنات وآبائهم وأمهاتهم، صراع بين نظرتين واحدة قديمة أسود وأبيض والأخرى ملونة، كلاسيكية وحداثوية شبابية، القدماء بسبب ضعف ثقافتهم الفوتوغرافية وضعف التكنولوجيا في زمانهم، كانت تصوراتهم لم تزل تعشعش في ظل الأسود والأبيض، لا تريد أن تستوعب الصورة الملونة وفن الترتيش.. في زمن لم يكتف فيه المصور الماهر بعمل صورة، بل هو قادر على ترتيشها وحسب الطلب، ليتحول المصور إلى رسام، مثلما تحول الرسام إلى مصور. تستطيع إذا كانت عيونك سوداء أن تجعلها خضراء أو زرقاء، كما بإمكانك تحويل بشرتك من سمراء أو سوداء إلى بيضاء وحنطية، بل حتى بإمكان المصورين الفنانين أن يتدخلوا بحجم الأنف والفم، في النهاية هم في خدمة الزبون الباحث عن صورة مثالية لشخصه الكريم. حتى انتشرت بينهم مصطلحات مهنية جديدة، مثل (صورة هدية)، (صورة خطوبة)، (صورة زواج)، (صورة تعيين)، (صورة تقاعد)، (صورة مصالحة)،..الخ

من آثار قرارات التأميم أن أوجدت الدولة جهاز شرطة جديد أطلقوا عليه مسمى (شرطة الفوتوغراف)، من مهامه إضافة إلى السهر على تطبيق قانون احتكار المخابر ومصادرة أجهزة التحميض غير الشرعية، كذلك حماية وإدامة الصور والجداريات الرسمية لرئيس

الجمهورية. إذ لا يخلو مكان عام، مقهى، جامع، ملهى، أو حتى زريبة من صورة مناسبة للرئيس، على شرطة الفوتوغراف حمايتها من عبث العابثين.

بلغ ولع الناس بالصور أن الهدايا التي يتبادلونها فيما بينهم، كانت كذلك عبارة عن صور وأحياناً تكون كاميرات. في مناسبات الزواج تدخل بيت الزوجية الجديد أجناس وماركات من الكاميرات يحتاجون لأيام لغرض أرشفتها وإيجاد كاونترات خاصة لها. يدشن الصديق كاميرته الهدية بصورة للعروسين. ثم يقوم بتحميض الفلم وتسليم العريس نسخة من تلك الصورة تكون في الغالب مرتشة يعرفها المصورون باسم (صورة هدية).

تجد في كثير من البيوت على الأخص بيوت الأغنياء أو علية القوم من وزراء ومدراء عامين ومسئولي شعب وفروع لوزارات الرئيس، ما يشبه متاحف كاميرات، تستطيع أن تتتبع من خلالها تأريخ الكاميرا من ألفه إلى يائه، من تلك البدايات البعيدة والمرتبكة لتلك الكاميرا التي كانت تشبه عفريت بأرجل خشبية.. وصولاً إلى كاميرات القلم ورأس الدبوس تلك التي تضعها أجهزة المخابرات في (سوتيانات) أو (كيلوتات) العميلات النشيطات، أثناء عملهن على صيد الأعداء. مؤكد، أن هكذا كاميرات لم تكن متاحة للجمهور، لكنها معروفة لهم. لا يخلو الأمر من وساطة ومحسوبية ومنسوبية تسمح لمواطن ما بالحصول على تلك الكاميرات العجيبة، ليضعها في متحفه البيتي، دون أن يستعملها بالطبع. أصلاً، هو لا يستطيع استعمالها،

لأن أفلامها تستورد بكميات محدودة وإلى جهات بعينها، تشرف عليها أجهزة خاصة في وزارة شؤون التصوير.

كانت صور الرئيس في البيوت والمحلات العامة إلزامية، المسؤولية في حمايتها وإدامة وجودها تقع على عاتق المواطن صاحب البيت أو الدكان. أُعتبرت تلك الصور في واحدة من التنظيرات التي تحفل بها جرائد الجمهوريات، أنها بمثابة وثيقة إثبات مواطنة. لا يصح أن يخلو بيت مواطن منها. هذا كان على الصعيد النظري أما على الصعيد العملي فلا يخلو الأمر من حالات تمرد هنا وهناك؛ كأن يضع أحد المواطنين في هذه الجمهورية أو تلك، صورة رئيس جمهورية عدوة لجمهوريته في بيته، يعلقها في مكان منزو يكون تحت اليد، يستطيع في أية لحظة من لحظات الطوارئ، أن يقتلعها ويحل محلها صورة رئيس بلده. ولأن مبدأ (الحاجة أم الاختراع) ما زال يعمل ويحض الناس على الابتكار والمزيد من الابتكار، توصل بعض المعارضين المستبسلين في معارضتهم، إلى ابتكار الصورة المزدوجة، جعلوا من صورة الرئيس المعلقة على الجدار صورتين، بدل أن يظل القفا اجردا مستوحشاً هو والجدار، وضعوا عليه صورة رئيس الجمهورية المحاددة لجمهوريتهم، أو صورة زعيم معارض يريد من صورته بديلاً لصورة رئيس البلاد. إذا زار بيتك عناصر وزارة شؤون التصوير أمامهم صورة الرئيس، أما إذا زارك عناصر المعارضة أو عملاء الدولة الأخرى سيرون الصورة الثانية. ومع مرور الزمن تطورت آلية ازدواج الصور، من تلك الطريقة البدائية

والتي كان بمقدور أغبى شرطي من شرطة الفوتوغراف أن يكتشفها ويذهب بجلد صاحبها إلى مدابغ وزارة الأمن، توصلوا إلى آليات فيها من التعقيد وفن الإخفاء ما فيها، جربوا الروافع والحوامل الالكترونية على طريقة التحكم بالستائر عن بعد. حتى اخترع أحد المهندسين من الصنف المشاغب بالطبع، اختراعاً كان فتحاً مبيناً لجيل من أجهزة التحكم عن بعد بإظهار أكثر من صورة في الصورة الواحدة. وكان الأمر يشبه السحر، تقلب الصورة على كل وجوهها لا تجد سوى صورة الرئيس، لكن بلمسة من جهاز صغير يختفي رئيسك ليحل محله رئيس الجمهورية الأخرى أو وجه معارض ذاع صيت صوره. بعد انتشار الطريقة الجديدة، كشفت أجهزة الأمن الخاص عن اصل وفصل المهندس، الذي أدعى أنه أراد خدمة بلده، عبر مساعدة الشعوب الأخرى خارج الجمهورية، بالاستفادة من هذه التقنية المضمونة، ضد حكامهم وإظهار مدى حبهم وتيمنهم برئيسنا المحبوب.. "أصلاً حين فكرت به كنت أفكر في تجريبه أولاً ومن ثم أعلمكم به..إلخ" هكذا أدعى. غير إن هذه التبريرات والمزاعم لم تنفعه في مواجهة السؤال الأخطر: أنك يا فهيم ويا ذكي لم تخبر أو تشرك أجهزتنا الساهرة على أمن وراحة المواطن، بأمر اختراعك هذا. راحت على المهندس، دخل مصيره تحت عنوان معروف للمواطنين: لا نعرف عنه شيئاً.

ما حدث لاحقاً وبعد اختفاء المهندس صاحب الاختراع، أن تطورت تقنيته على أيدي زملاء له بابتكار أجيال جديدة من نموذج الجهاز

الأول. كان جهاز المهندس المفقود كبيراً نسبياً، لكن الأجيال الجديدة صارت تتناهى في الصغر لدواعي الإخفاء بالطبع، حتى أن آخرها جاء على قدر حبة الحمص..!! جهاز يمكن إخفاءه بسهولة بين حبات المسبحة وبألوان مختلفة يمكن ترهيمها بسهولة على ألوان المسابح وموديلاتها. رغم هذا لم يخل الأمر من مخاطرات ومجازفات يقدم عليها المواطن الحامل لهذا الجهاز، حيث عيون شرطة الفوتوغراف والحرس الخاص بالمرصاد وهي عليمة بكل ما يحدث، أو كما يقال؛ أن لكل فنون الإخفاء، فنون توازيها في القوى وتعاكسها في الكشف.

الأمر الذي دفع البشر أخيراً إلى إعلان عجزهم والاستعانة بالحمير. وهذه عادة بشرية قديمة، إذ يعجزون عن شيء يستعينون بالحمير. نعم، لقد اهتدى أحدهم إلى طريقة للإخفاء لا تخطر على بال إبليس نفسه، اعتاد ذلك المواطن أن يخفي جهازه عند شمه رائحة كبسة أمنية في دبر حماره. حيث صعوبة الاهتداء على الجهاز المخفي في دبر الحمار، تعود في الغالب إلى وجود أ كثر من حمار في المكان الواحد، هذا عدا عن أن عملية الكشف بمجملها متوقفة على مزاج الحمار في التبرز. والمعروف في معشر الحمير؛ أن أي حمار يحترم نفسه لا يتبرز بأمر حكومي، لذلك حين يأتيه الطلب من الأجهزة الخاصة، بالتبرز، ببساطة يروح في حمرنة تجعل الواحد منهم يلعن الساعة التي فكر فيها بالعمل في الجهاز الأمني. يتحمرن حتى يصاب بالإمساك لأيام تطول. عندها يدب

الملل في خلايا وتلافيف الشرطي وهو يراقب دبر الحمار على مدار الساعة، لينسحب أخيراً وفي رأسه يقين مشاكس أن الحمار متآمر.

كانت تلك من وسائل العمل السري، لجماعات من المعارضين السياسيين. وكانت الحكومة وأجهزتها المختلفة، تنعت هؤلاء المتمردين السريين بكل نعوت الخيانة والعمالة وصولاً إلى الارتزاق وبيع الوطن. وبتقديري (ما زال الحمار يتكلم عن نفسه) رغم ما في هذا الاتهام من بعض المبالغة والتعدي على المواطن، إلا أنه لم يخلو تماماً من الحقيقة، على الأقل تهمة الارتزاق. لأن العملية تحولت في كثير من تجلياتها، إلى وسيلة رزق لكثير من العاطلين عن العمل، أو المغامرين الباحثين عن ربح سريع، متحملين في سبيله بعض المغامرة. معلوم أن صورة رئيس جمهورية عدوة، مثلاً، لا تعبر الحدود إلا وتكون بصحبتها كميات من المال والأجهزة الالكترونية، التي تحمي الازدواج، ناهيك عن أمر الترويج والدعاية الذي يتطلب بالتأكيد الكثير من المال، وهذا يتخذ في العادة شكل صرف مفتوح، لا يعتمد على توفير فواتير أو أي مستمسكات ستستخدم ضد الشخص في حالة الإمساك به، لأن العمل بكليته سرياً. لهذا السبب، كان على أي زعيم وطني معارض، يريد أن يكون بديلاً لرئيس جمهوريته، أن يدفع الكثير، أو يطلب الكثير من المال من الدولة الأجنبية التي تدعمه وتموله.

كانت صور الرؤساء البدلاء في عهد الرئيس الحالي تكلف مبالغ هائلة. أموال تبحث عمن يوفرها، وعن من يتصرف بها. وبما أن الإنسان كما يشاع في هذه الجمهوريات هو حمار طماع..!! كما ترون مرة أخرى يلبسون الحمار شرورهم وموبقاتهم. لأن الأصل في هذا المثل يقول: الإنسان طماع.. بلا حيوان وبلا بطيخ

قاطعه "غفار":

– لكن، في عالم آخر يا صديقي، يقال عنه: إنسان طموح.

واصل الحمار وكأن زميلنا لم يتدخل:

– لذلك تجده لا يصمد أمام منظر النقود بين يديه، سيعمل البلاوي من الخيانة والارتزاق وبيع أسرار البلد ورئيسه لكل من يدفع. رغم أن الأمر لم يخلو من إستثناءات لمعارضين وزعماء معارضة غير فوتوغرافيين، يحلمون بجمهوريات شعبية غير فوتوغرافية.. إلا أن زحمة البورصة وشركاتها الداخلة في الفوتوغراف والمبالغ الكبيرة المرصودة لهذا النشاط، غطت على أولئك وجعلت وهج سمعتهم يخفت. خصوصاً وأنهم كانوا يدعون إلى خروج الناس في مظاهرات بدون صور على الإطلاق. أو يلجئون إلى إشغال رأس المواطن التعبان بأحاجي نظرية لا يفهمها بسهولة، لأنها غير مصورة، أحاجي تقول؛ بضرورة تعديل نظرية المركز والأطراف لصالح الأطراف. أي مركز.. أي أطراف..؟ كيف للمواطن أن يعرف المركز والأطراف وهو لا يعرف رأسه من أطرافه..؟ ثم هكذا أحاجي تأتي على لسان معارضين غير فوتوغرافيين، أصلاً هم بلا صور.

وفوق هذا وذاك، يشاع عن هؤلاء المعارضين، أنهم لا يبحثون عن دعم من أي دولة أجنبية.. هنا حقاً لا يفهم المواطن كيف سيكون بمقدور هؤلاء، فرض صورهم على صورة الرئيس أو صور المعارضين الفوتوغرافيين الآخرين وهم كثر، إذا كانوا بلا مال أصلاً وبلا صور. ظل أولئك المعارضون مركونين في زوايا المنافي البعيدة والقريبة، منسيين لا أحد يعرف عنهم شيئاً، على خلاف المعارضين الفوتوغرافيين، الذي أول ما يفكر الواحد منهم بمشروع معارضته، يفكر بمشروع الصورة الفوتوغرافية، التي سيقدمها للجمهور وتكون قادرة على منافسة صور الرئيس.

مع مرور السنين وكثرة التداول، اكتسبت الصورة في تلك الجمهوريات، معان ومدلولات مادية واعتبارية كثيرة. ثمة صور قد قادت انتفاضات في واحدة أو أكثر من هذه الجمهوريات المتحادة والمتعادية. وصور أخرى ظلت تقود جمهورياتها، مع أن صاحب الصورة قد مات وشبع موت منذ زمن بعيد. لكن، ظلت صورته تذكرة مرور لكل حالم بتثبيت صورته في السلطة.

ومن المدلولات الاعتبارية الأخرى للصورة في الجمهوريات الثلاث؛ أنهم وفي أوقات المواجهات الحاسمة، يحشدون الجماهير في تجمعات مليونية، لحرق صور الأعداء. يدعون الجماهير يتولون الأمر بأنفسهم، بعمليات يتصاعد فيها حماس واندفاع وصراخ الجموع مع تصاعد ذرات الغبار، لتصل إلى مرحلة الذروة، حيث طقوس الحرق وتصاعد الدخان والغبار ليتبعها خطيب مفوه، ينزل

اللعنات والشتائم بحق صاحب الصورة المحروقة، منهياً خطابه بعمالة صاحب الصورة للكيان الشيطاني. ويقصدون بالطبع تلك الدويلة الذئبية التي احتلت أراضيهم، دون القدرة على استعادة شبر منها. رأيت الأمر نفسه يحدث، في كل جمهورية ضد صورة رئيس الجمهورية الأخرى. في المحصلة ظهروا لمخيلتي الحمارية، أن الجميع في تلك البقاع كانوا عملاء لذلك الكيان الشيطاني.

قال مرة أحد المسؤولين الحزبيين من حزب الرئيس، في إحدى الجمهوريات وفي خطبة عصماء: أن كل قيم السماء والأرض وحتى قيم الكواكب المعروفة وغير المعروفة، تقول أن المحتل من أرضنا يجب أن يُستَعاد. لكننا، ولظروف تاريخية دقيقة وحساسة نمر بها، قررنا وقف التحرش بالعدو عسكرياً. إنما، ومن أجل أن لا تظل جماهيرنا واضعة يدها على خدها مثل المرأة الزعلانة، أدعوكم إلى الحرق.. نعم.. اجعلوا الحرق هو التذكير الدائم بالاحتلال. علينا أن نحرق صورهم ونمرغ علم دويلتهم بالوحل وتحت أقدام جماهيرنا العظيمة. سنحرق ونحرق ونحرق.. سنجعله حريقاً حتى النصر. لقد فعل ذلك الخطاب الحماسي، الأفاعيل بالجماهير، التي كانت محروقة أصلاً بلهيب الشمس القادر على شوي المعادن الصلبة ما بالك بالبشر.

هكذا دام الحال، في كل احتفال من تلك الاحتفالات الغبارية، تحرق الجماهير الغاضبة صورة زعيم من الزعماء وتسحقها بالأقدام. حتى اكتشف أحد الصحفيين اللامعين، في إحدى تلك الجمهوريات، ثغرة

خطيرة في سير الأحداث، نوه عليها في مقال معتبر بعنوان (لا تجعلوا أعداءنا يشربون الشاي معنا..!!!)، قال فيه: لقد درجت قيادتنا الحكيمة على قيادة الركب من نصر إلى نصر، بانتشالها الجماهير من الحالة السلبية إلى الحالة الإيجابية، عبر فعاليات الحرق الجماهيري، لكن هناك ثغرة لم يتنبه لها كوادرنا المنفذة لتوجيهات القيادة الحكيمة، هي امتلاء بيوتنا ومؤسساتنا ودور اللهو والعبادة، بصور أعدائنا من دون أن نشعر..!! نعم يا سادتي، غدت صور أعدائنا تشاركنا المسكن ومن يدري لعلها قريباً ستشاركنا الصلاة والصوم والرقص والأكل وشرب الشاي. بل هي موجودة حتى في غرف نومنا!! أما كيف؟ فإليكم الحقائق.. ودخل ذلك الصحفي في عملية حسابية من الإحصاءات والأرقام المذهلة، عن عدد صور الأعداء، الذين يراقبون المواطن حتى في غرفة نومه ويشربون معه الشاي..!! تبين أن الجماهير ما أن تنتهي من حرق صور الأعداء في حفلة من الحفلات، حتى يكون قد فضل في حوزتها كمية أخرى منها، لم يسعف الوقت لحرقها لأي سبب من الأسباب، لذلك تلجأ بعفوية أو بقصدية إلى تخزينها أما في البيوت أو المؤسسات أو حتى مقار الوزارات تهيئة لحفلات أخرى. هذه هي تلك الثغرة التي أضاءها ذلك الصحفي اللامع، منوهاً "أن العدو قادر على الدخول من خلالها إلى قلب تحصيناتنا الدفاعية". ثم وجه نداءه إلى قوى الأمن: على الجهات المسؤولة أن تحرك ساكناً قبل فوات الأوان!!

كان لنداء ذلك الصحفي الوطني الغيور مفعول الصدمة للأجهزة الأمنية العليا. سارعت على الفور بإعداد حملة وطنية شاملة لجمع كل صور الأعداء من البيوت والمحلات. قاد الحملة أحد أمهر ضباط شرطة الفوتوغراف بتكليف مباشر من قبل الرئيس. أعطى أسبوعاً غير قابل للتمديد، لكل من يخفي صورة أن يسلمها إلى أقرب مركز للشرطة، ولا ضير أن يتلثم وهو يسلم الصورة، إذا كان خائفاً من إجراءاتنا العقابية. بعد هذا الأسبوع، ستشن قواتنا حملة شاملة لاعتقال كل من سولت له نفسه بإخفاء صور الأعداء في بيته. ثم أصدر الرئيس من جانبه، مرسوماً رئاسياً بتكوين لجنة خاصة، تأخذ على عاتقها هي فقط دون غيرها، مهمة تأمين صور الأعداء، لاحتفالات الاستنكار والحرق. ووُضِع ذلك الصحفي الشهم على رأس اللجنة، ألا يكفي أنه أول من نبه للخطر الذي كان مجهولاً. فتحت اللجنة فروعاً لها في كل المحافظات والقرى، وصارت توزع الصور بقدر معلوم إلى شخص معلوم عبر وكلاء عينوا خصيصاً لهذه المهمة. وتم ربط اللجنة مباشرة بوزارة شؤون التصوير.

لقد صمت الحمار فجأة. وأكاد أقول لقد أرحمنا بصمته. كنا ننشد الخروج من الزريبة، خصوصاً بعد أن تكفلت بوخة التراب بتشتيت تركيزنا، بسعراتها الحرارية الصاعدة إلى أنوفنا من خلائط لا تدري لها لون أو نوع.. ثم كيف لك أن تتابع منعرجات وأخاديد وتجاعيد لغة قبل بشرية بدون تركيز.. كنت أشاهد ميازيب العرق الناضح

من وجه أميرنا بتلك المسارب والجداول السائلة على طول رقبته الطويلة، كانت تنتهي عند المنحنى الحاد للحنك، تتجمع هناك على هيئة قطرات كبيرة، الناظر إلى تساقطها الثقيل والمتلاحق على الأرض يظن أن في حنك الأمير ثمة ثقب.

عرفنا أن لدى حمارنا الكثير مما لن يبخل به علينا في الجلسة القادمة. لعل الأمر بكليته كان منظماً في ذهن الحمار على شكل شهادات. أتحفنا باثنتين وأكيد سنحصل على الكثير. لكن، ليس بالضرورة أننا سننشر كل ما قاله. ربما سننشر فقط تلك التي من الواضح وجود ترابط فيما بينها. ما زلنا في أول الطريق ولدينا الكثير من الضعف والهنات، في عمليات الترجمة والتحويل من لغة إلى أخرى..

شهادة رقم (3)

الحمار أبو المدد ذو الوشم

في برية (الصبخاوية)، تشعرك التلال الكلسية؛ أن للظهيرة وقع رمال سائلة، تنثال على وجهك، حتى تغبّش الرؤية. يظل الجسد يعتصر نفسه ويقطر المسافات، ينوء بحمله للوصول إلى حيث الظل. وكان الظل الموعود، بعد تلك الجلسة الطويلة مع حمارنا الثرثار والمولع بالتفاصيل صغيرها وكبيرها، هو (استراحة الملوك). دخلنا أخيراً ظل الاستراحة المرطب بهواء المكيفات، وكانت الحيوانة الجميلة الدجاجة–الطاووس، بحوزة زميلنا "غفار". أخبرنا؛ أنه لم يستدل على من يشتريها منه. لعله أيضاً قد تكاسل واستسهل أسلوب الخطف. كانت هي الأخرى قد همدت مستسلمة لخاطفها. إنما هذا وبعد دخولنا الاستراحة، كأنه استعاد نشاطه، راح في كل سانحة وشاردة، يذكر الدجاجة المسكينة بمصيرها الأكيد ذبحاً ومن ثم شواء. الأمر الذي جعل أميرنا يوبخه على ذلك السلوك غير السوي. أولاً على سلوك الخطف وثانياً على التشفي بمصير المخطوفة. كان مشروع الزميل (غفار) مع تلك الحيوانة، لا يعدو

عن تحويلها إلى (أكلة خاصة)، يدفع بها لعامل المطعم، ليقوم هذا باللازم. وقبل أن يتحول مشروعه من النية إلى الفعل، وهو يصفق بيديه منادياً على عامل المطعم. صعد الأمير من وتيرة رفضه لكل المشروع الغفاري، وكأن شيئاً خطيراً قد تذكره الآن فقط، قاذفاً بوجوهنا بتورية، تكفلت مع المشادة الكلامية الحادة بين الزميلين، بتشتيت ما تبقى من تركيز في رؤوسنا. فجأة، تحولت نبرة حديث الأمير مع الزميل "غفار" إلى أوامر اقتربت من الاستفزاز وهو يشير إلى الدجاجة:

– عليك أن تعيد جرس (بافلوف) إلى موقعه فوراً..!!

صمت هنيهة، ثم واصل وكأنه يحدث نفسه:

– كيف فاتني هذا..؟

لم نفهم شيئاً مما أراده الأمير، عن أي (بافلوف) يتحدث وأين جرسه..!؟ ثم جاء غضب الزميل "غفار" الذي انفجر مباشرة ودون مقدمات، بأصوات تنتمي للصراخ، كأنه عبوة ناسفة، نسفت كل ما تبقى لنا من تركيز وفهم. لقد نهض "غفار" من مقعده، مزبداً مرغياً وهو يوجه إصبعه إلى وجه الأمير، كأنه يريد إدخال الإصبع في عينه:

– آلاف المرات حذرتك من هذا الإصبع اللعين، لا أسمح لأي كان أن يحادثني بإصبعه..

هكذا حصل الأمر. لم يكن غضب الزميل بسبب ما كان في حديث الأمير من إلحاف واضح، ولا لأنه قد تعب بما فيه الكفاية من

عملنا اليومي وأيضاً، ليس بسبب تورية (بافلوف)، ربما كانت تلك الأشياء محرضات مساعدة، لكنها لم تكن أساسية في غضبه الساطع، بل كل المشكلة كانت في الإصبع. نعم، لقد استخدم الأمير إصبع السبابة وهو يوجه الحديث إلى (غفار)، طالباً إعادة (الجرس). كان الإصبع هو الصاعق الذي فجر أول شجار كاد يذهب بمشروع جماعتنا أدراج الريح، ونحن في المراحل النهائية من أول مشروع تطبيقي لنا. كنا جميعاً متعبين وما ننتظره هو الاسترخاء والوجبة اللذيذة التي طال انتظارها. في كل الأحوال لم نكن ننتظر ما حدث. لقد نسى الأمير؛ أن إحدى عيوب الزميل (غفار) الخطيرة، أنه يدخل في الحمرنة بسرعة الصاروخ ما أن يحادثه أحدهم باستخدام الإصبع.

بعد أن تنبه الأمير إلى وقعته، حاول أن يتدارك الأمر. أنزل الإصبع كلياً من التداول، بل وضع يده صاحبة الإصبع كلها تحت عجيزته، كأنه خائف من أن تتمرد وترفع إصبعها ثانية. وأخذ يعتذر من الزميل بأدب ومودة:

– "غفار"! أنا آسف.. اعذرني.. لقد نسيت نفسي.

لكن "غفار" دخل في حمرنته وانتهى الأمر. رد عليه:

– هل صدقت أنك أمير حقيقي..!!؟

أجاب هذا بانكسار واضح:

– الله يلعن الأمراء والإمارة.. من قال لك أني صدقت..!!؟

واصل الهجوم:

– الحق ليس عليك، بل علينا نحن الأغبياء، لأننا قبلنا بمشروعك الغبي هذا.. تفضل.. انظر ماذا حلا بنا.. نطارد الحمير في هذه السباخ.!!

ما زالت إجابات الأمير متكسرة، بل هو يحاول أن لا يجيب، لمعرفته أن لا نفع من أية إجابة:

– الله يلعن المشاريع والحمير و...

لعله أراد القول: والأصابع.. لكنه عدل:

– أرجوك، حاول أن تهدأ، فقط لتسمع ما أردت قوله بخصوص هذه الحيوانة اللعينة..

وأشار على الحيوانة بكامل كفه، وليس بالإصبع. لكن كيف يسمع هذا وهو قد قفل في حمرنته:

– أي حيوانة هذه.. ها.. أي حيوانة.. هل تدري ماذا تفعل أنت..؟ اسمع، لقد تحملناك أكثر من اللازم أنت وهرطقاتك الغبية.. بافلوف..هاهاها..ما علاقة بافلوفك هذا بالدجاج المشوي.. ألا تنتهي تخريفاتك.. لكن.. نحن الأغبياء..

مرة أخرى حوطنا بدائرة الغباء وهو يعلمنا بإصبعه

– يا "غفار".. أنت فقط لو تهدأ، سأوضح علاقة هذه الحيوانة بجرس بافلوف.

بالطبع، كان باستطاعة الزميل (غفار) مواصلة ذلك العناد والمشاكسة والرفض إلى ما شاء، لكن سرعة بديهة الزميل (زهار) أو طفاية الحريق كما كنا نسميها، أوقفت التداعي. تنبه (زهار) أن

علـى الأميـر لا مجـرد تنحيـة إصـبعه، بـل عليـه هـو وإصـبعه و(بـافلوف)ه أن يتـواروا سـريعاً. غمـز للأميـر بحاجبـه؛ أن؛ اتـرك الطاولـة واخـرج. فهم الأمير الغمزة ونفذها مباشرة. انتشل نفسه من الكرسـي وذهـب باتجـاه المطـبخ. التقـى عامـل المطعـم الـذي كـان متوجهاً صوبنا، ربما ليستطلع أمر الهياج الذي ألم بالزميل، التقاه في منتصف الطريق. لحسن الحظ كان المكان شبه خالٍ إلا منا. وضع يده على كتف العامل بصداقة وأوصاه على وجبة من الدجاج المشوي، مع توابعها من المخلل والخضروات والخبز، يجلبها لنا إلى غرفتنا في الفندق. وتوارى تماماً عن المكان.

بدأ (زهار) يتقمص دور الأمير في توزيع العمل. طلب من (عمار) أن يلحـق بـالأمير ويفهـم منـه مـاذا أراد بخصـوص الدجاجـة المخطوفة:

– عمار..! خذ أنت هذه الحيوانة المنحوسة.. واستطلع لنا أخبار (بافلوف) من الأمير.

ثم وجه حديثه إلى الزميل (غفار) بين الجد والهزل:

– لا أدري هـل ألعـن أجـدادك أم أتـرحم علـيهم.. ألـم يعثـروا علـى مورث آخر يورثوكم إياه غير هذه المصيبة..؟

ثم التفت لي:

– وأنت يا زميل!

قالها بعصبية وكأنني أنا (بافلوف) صاحب اللغز:

– أعتقد أن لديك عمل بافلوفي هائل هذه الليلة.. اذهب إلى الغرفة واستحم قبلنا جميعاً.

نفذت من جانبي الأمر على الفور، ليس لأني لاحظت ارتسام علامات لا تحمد عاقبتها على وجه "زهار"، إذ تجعدت خارطة جبينه وتوترت شرايين رقبته الغليظة ناهيك عن عيونه التي صارت تقدح بالشرر. وتلك كانت من العلامات الشخصية للزميل لقرب دخوله هو الآخر في محراب الحمرنة. أقول ليس لهذه الأسباب نفذت الأمر، وإنما لأني كنت متعب إلى حد غير قادر على رد أي حمرنة توجه لي.

وأنا أغادر الطاولة، سمعت "زهار" يهدد "غفار" بغضب واضح:

– (غفار)! أنا كذلك مللت منك ومن الأصابع ومن الحمير والأمير.. إذا لم تهدأ، سأعيدك إلى أبعد جد من جدودك الصحراويين.. أعيدك بهذه..

ولوح له بقبضة يده

ثم واصل:

– كفى! دعنا نفهم ما قصة هذا الـ(بافلوف). ثم نقرر مصير المشروع كله.

وظل هذا يردد:

– لكن.. يا عالم.. يا ناس.. هل من يدلني على علاقة بافلوف بالدجاج المشوي..؟

ليجيبه "زهار"

– لعلها مثل علاقة الإصبع بحمرنتك.. هل فهمت الآن..!!

على أية حال، انتهت زوبعة "غفار" وعاد مع "زهار" وهما يضحكان بأصوات عالية. لا أدري كيف انتهت، لكنه قد دفع الثمن كاملاً لتلك الحمرنة، وفق المعاهدة التي كانت بيننا. تعاهدنا على تحويل كل متحمرن في غير أوان الحمرنة، إلى كيس ملاكمة وكفخات، وذلك بعد خروجه من الأزمة بالطبع، وعليه أن يتقبل الأمر بروح رياضية. ووافقنا جميعاً على هذا الأمر، في محاولة لتقنين الحمرنة وجعلها على الدوام ذات جدوى وفي وقتها.

بعد عودة "عمار" من مشواره أو عقوبته. كان "غفار" قد دفع المقسوم الضريبي من كفخات ولكمات أخوية، رافقها صياح وتهديد ووعيد، منها من تصدى لها وأخرى وصلت إلى هدفها، إلا أن الزميل الداخل تواً إلى الغرفة أبى إلا أن يأخذ حقه، بينما كان "غفار" منحنياً يلملم ملابسه المبعثرة في الغرفة، عاجله الزميل الداخل تواً، بكفخة ذات رنين على علبائه العارية، ثم هرب في طريقه إلى الحمام. وما أن انتشل هذا نفسه من هول الكفخة وحاول اللحاق به، كان ذاك قد دخل غرفة الحمام وقفلها عليه.

– واضح أننا جميعاً بحاجة للرجوع إلى "بافلوف".

بهذه الجملة، ابتدأ الأمير حديثه في الاجتماع اليومي، على مائدة الطعام في غرفتنا في الفندق. ثم دخل في شروحات واستذكارات حول علم النفس لدى "بافلوف"، على الأخص منها موضوعات

الانعكاس الشرطي والجرس والفأرة وغيرها الكثير. لنفهم أخيراً أن الدجاجة كانت هي جرس "بافلوف" بالنسبة للحمار. لولاها لما وصلنا إلى أي شيء مفيد. وأننا رغم هذا كنا على وشك التفريط بها عبر سلوك "غفار" المغامر. أشار على "غفار" هذه المرة بدون إصبع. أما سبب انزعاج الحمار وإضرابه عن الحديث بوجودها فعزاه الأمير إلى ما أسماه بالارتداد الانعكاسي للإنعكاس الشرطي..!! شخصياً لست متيقناً إن كان "بافلوف" قد قال بذلك المصطلح (الارتداد الانعكاسي) لعل قريحة أميرنا هي التي تكفلت بنحته وهو يتقمص روح "بافلوف"، لكن الواضح واللا غبار عليه، أن أميرنا بدا متفوقاً علينا ومزهواً بانتباهته تلك. بل كان وهو يشرح كأنه على وشك الخروج بنظرية جديدة في علم النفس. مأخوذة هذه المرة من تجربة الحمار مع تلك الحيوانة الجميلة. لكن، الحق يقال، أثبتت لنا الأيام اللاحقة أنه كان على حق. إذ لولا تلك الانتباهة لذهب جهدنا حقاً أدراج الريح بسبب استعجال واستهتار زميلنا "غفار". نعم، كانت الدجاجة جرس عظيم الأهمية ليس لبحثنا مع ذلك الحمار الثرثار فقط، بل لبحوثنا اللاحقة. حتى أننا أدخلنا "الجرس" لاحقاً إلى صميم وسائلنا. تبين لنا؛ أن لكل حمار جرسه الخاص به، وما على الباحث إلا التفتيش عنه. حتى أننا توسعنا لاحقاً، واعددنا بحثاً مستقلاً؛ تحت عنوان (جرس الحمار).

هكذا كان، بعودة الجرس إلى محله القديم، عاد كل شيء في تلك الزريبة إلى ذات الترتيبات العفوية والتلقائية. واظبت الحيوانة

الجميلة، على زيارتها اليومية لزريبة الحمار الدائرية، في وقت معين من الظهيرة، وكأن الزيارة إحدى طقوسها اليومية، ليتبعه فعل النقر ثم الانقضاض الصقري على حبات الغائط المتناثرة، عندها وعندها فقط تبدأ الطقوس الحمارية وبذات التسلسل: صفنة طويلة.. نهيق حاد.. دوران في محيط الزريبة مع رفس الأعداء الوهميين.. ثم الحمام الترابي. ليأتي أخيراً دورنا في الظهور أمام الحمار. ظهور متدرج في تقربه إلى الحمار، حتى نصل إلى مسافة نستطيع فيها سماع تلك الموجات الخافتة من الهمهمة التي يطلقها بين الحين والآخر.

القسم الأكبر من الشيفرات والإشارات المهمة الناطق منها والصامت، نكون قد حصلنا عليه أصلاً من تلك السلسلة الطويلة من العمليات، التي يمارسها بتحريض الجرس. يكون كل منا قد سجل في كراسته، ما يشبه نصوصاً مكتوبة برموز تنتمي إلى لغة غير بشرية، ثم تأتي بعد ذلك متابعة العمليات الماوراء الصفنة، لتكون بمثابة ترجمة شبه فورية نقوم بها لتلك الرموز والشيفرات التي حصلنا عليها أصلاً. بعد أن ننجز كل ذلك، تكون جلستنا مع الحمار قد انتهت، لنخلو إلى بعضنا في اجتماع نعقده بعد مغاردتنا وتوديعنا الحمار، نعالج فيه الثغرات الحاصلة في التدوين. في هذه العملية قد يتدخل الخيال أحياناً، وأحياناً أخرى الانحياز لفكرة دون أخرى. لأعترف؛ أن الجزء الأخير من عملنا ينتمي بكليته إلى الطبع البشري غير المحصن تماماً ضد الأخطاء والتحامل

والانحياز وغيرها من الموبقات التي قد تفسد البحث فيما لو بولغ بها.

على العموم لقد استفدنا كثيراً من تلك التجربة، ونجحنا في تطوير بعض أدواتنا البحثية. لكننا فشلنا في قضية واحدة، لا تقل أهمية بالنسبة لنا على الأقل، هي دفع الحمار وقبله الحيوانة الجميلة لممارسة طقوسهما في وقت آخر غير الظهيرة. إلا أنهما أبيا إلا أن تكون الظهيرة هي الوقت الملائم والمحبب لهما. اكتشفنا لاحقاً، أن الحمام الشمسي في عز الظهيرة ثم الترابي لاحقاً، هما أمران لا غنى عنهما للحمير لعشرات الأسباب، منها الجسدي ومنها النفسي. الأمر الذي جعلنا نتوغل عميقاً في حقيقة أن الحمار هو غير الإنسان. لعل أحدكم سيضحك في عبه الآن ويعلق: مبروك، لقد اكتشف كاتبنا البطنج..!! وأرد على هذا القارئ المشاكس، ب–نعم، أجد ذلك الاكتشاف مهماً لكثير من البشر، سواء الذين يتعاملون مع الحمار على أنه إنسان أو مع الإنسان على أنه حمار. في الحالتين، علينا فك الارتباط والتداخل المفتعل والخطير بين الإنسان والحمار تحديداً. وهو تداخل سببه الإنسان وليس الحمار. على هذا الأساس كان اكتشافي البطنجي مهماً وضرورياً. لنعود الآن إلى موضوعنا ونبدأ مع الشهادة الثالثة من شهادات ذلك الحمار.

قال الحمار:

بعد نجاحي بالتسلل عبر الحدود وابتعادي كلياً عن زريبة (أبي عبدو)، اختلطت بقطعان متفرقة من أتن كن يرعين في منحدرات تتماوج صعوداً وهبوطاً. كان في تلك المروج العشب والماء وفيرين. علمت هناك بذات قصة الفصل العنصري، يأتي الإنسان إلى تلك البراري بين الحين والآخر لاصطياد الذكور فقط. قضيت أوقاتاً عذبة برفقة الإناث مع وفرة العشب والماء، تفتحت معها كل مسامات جسدي، صار جسدي شفافاً يمتص الماء والهواء ويطرحهما سوائل متعددة، توسعت مجاري العروق وصار الدم يتدفق دون معكرات بشرية. لا أدري كم دام ذلك العز، قبل أن تداهمنا قطعان كبيرة من الحمير الذكور هذه المرة. تواصل توافدها أياماً طويلة وبأعداد غير معروفة في مثل تلك البراري. علمنا من الوافدين أن ثمة في القرى والمدن مطاردات لا ترحم للحمير، لم يكن سببها الحصول عليها للعمل، بل كان الغرض قتلها. في تلك الأجواء من اكتظاظ البراري وانفلات المزاحمة والتنافس بين الذكور على أتان البرية، لم يعد للأصول والقوانين والأعراف أية قيمة. كان الواحد منهم وهو يؤانث أتان، تجد عيونه تزوغ هنا وهناك بحثاً عن

أتان أخرى، وما أن يعثر على إحداهن وقد فرغ منها حمار آخر، حتى تجده يترك التي بين قوائمه ليذهب إلى الأخرى. حصل انفلات سببه ذلك الجوع للإناث الذي ألم بالحمير الوافدة. مما أوجد مشاحنات وخصومات بين الحمير بسبب الأتان هذه المرة، الأمر الذي لم يكن يحدث حسب ذاكرة أهل الحل والعقد من الحمير في كل تاريخ الحمير. قالوا عنه؛ أن هذا طبعاً بشرياً وليس حيوانياً، جلبته معها الحمير المطاردة من المدن والأرياف. صحيح أن بعضهم قد قلل من شأنه، وقدم تطمينات على شكل تحليلات أن مصير هذه الخصومات إلى زوال، وستعود الحمير إلى طبعها الحميري الذي شوهته تلك المدن والأرياف، مستنداً في تحليله إلى قوة الغريزة على التطبع وكان أولئك من أنصار مدرسة الغريزة في التحليل النفسي. لكن ظل قسم غير قليل من أهل الحل والعقد، متشائماً مما وصلت إليه الأمور، وهم من المنتمين أصلاً إلى مدرسة التطبع، القائلين بغلبة التطبع على الغريزة.

بالنسبة لي، نحيت نفسي متطوعاً عن أية خصومة أو مزاحمة، ولم أشغل نفسي بالخلافات النظرية بين المدارس. من جهة تفهمت جوع الوافدين وأنا أتذكر أصدقائي القدامى من الربطاء في زريبة "أبي عبدو". ومن جهة أخرى كنت بحاجة إلى الصفنة بمديات جديدة، لم تتوفر لي سابقاً. لكني، ولسوء حظي، قد دفعت ثمن هذا الاجتهاد في أول حملة صيد. لقد استطاعوا صيدي بلا أدنى مشقة، بعد أن دهموني متلبساً بصفنة من القياس الطويل.

ساقني الصيادون إلى زريبة غريبة الشكل. لا تحمل من شكل ومضمون الزريبة غير روائح فضلات الحمير. حشروني مع غيري من الحمير المكدسة هناك في ظلام ترابي. غرابة الزريبة الجديدة؛ أنها تكاد تكون مدفونة تحت الأرض وليس كما هي الزرائب في الهواء الطلق، كذلك خلو أرضيتها من أي بقايا لعشب، تكاد تكون أرض محفورة لا شيء فيها غير التراب والظلام. فيها عدة مداخل غير الذي أدخلوني فيه. كذلك لم يكن للغذاء المقدم لنا أي شيء من رائحة العشب أو السيقان أو البذور إن كانت شعيراً أو برسيماً أو أية حبوب أخرى. لم يتعد الغذاء المقدم سوى قشور البطيخ وما تجود به المزابل من خلائط، يجلبها أحدهم لنا بين الفينة والأخرى. كذلك كان الماء مقنناً، بشكل يمنع الحمار من الإكثار من أكل تلك القشور والخلائط.

في البدء أحلت الأمر إلى البخل البشري، قلت لعل صاحب الزريبة من البخلاء، وهؤلاء نصادفهم كثيراً في حياتنا المشتركة مع البشر، لكني لاحقاً تخليت عن هذا التفسير، بعد أن طرقت سمعي مسميات وهواجس ومخاوف بشرية كثيرة لم أفهمها كلها.

في الحقيقة كانت كثيرة هي الأمور التي لم أفهمها مباشرة، في ذلك الحيز الزمني الترابي الأظلم في تلك الزرائب. لكنني سمعتهم يرددون فيما بينهم، في كل مرة يأتي أحدهم خالي الوفاض من وجبة حمير منتظرة، يتحدث عن شيء اسمه (سياسة تجفيف المنابع). لم

أعرف في حينها ما هي تلك المنابع التي يريدون تجفيفها وما علاقتنا نحن الحمير بتلك السياسة.

ظلت تلك الألغاز البشرية تؤرقني، لغاية اليوم الذي تحولت فيه إلى حمار سياسي. عندها أخذت مغاليق كثير من الطلاسم، تتفتح أمامي وفهمت رويداً رويداً أشياءً كثيرة عن تلك السياسة، التي أسموها (تجفيف المنابع). على العموم، كانت أغلب الوجوه التي تزورني في تلك الحفرة الكبيرة، خالية من الفرح، ولا تبوح بغير الزعل والخصام والغضب والنوايا الشريرة المبيتة.

هناك أحسست بكل ما في عروقي من نبض، بمقدار الخطأ الذي ارتكبته بحق نفسي، حين هجرت زريبة "أبي عبدو" الطيب. صرت بعد كل صفنة من صفناتي أضع اللوم على حمرنتي. نعم، شعرت وبالملموس أضرار ما يمكن لحمرنة في غير محلها أن تجلبه للحمار. كان كل شيء في موطني الجديد بمذاق وطعم لم أستسغه. ظل رأسي الكبير المتطاول لا يجتر في جوفه غير روائح سنابل الحصاد، روائح الأرض السوداء المقلوبة، روائح تلك الأتن المنفية في البراري البعيدة وهن يتلظين انتظاراً لوصول الطلقاء من أمثالي. صحيح كان الفصل العنصري نقمة على الربطاء، لكنه كان وبنفس القدر رحمة للطلقاء وكنت أحدهم على مدى طويل. علمت كم كان "أبو عبدو" رحيماً، طيباُ، متفهماً لاحتياجاتي، باستثناء ذلك الصباح اللعين حين قرر إضافتي إلى قطيع الربطاء في زريبته، فارضاً علي صومهم. كانت معي ثمة إتن يشاركنني المكان، لكن لم تبق في

النفس رغبة، لقد خمدت كل الرغبات، صرت أرى الإناث وكأنها ذكور. لم تعد تلك الحماسة وذلك الاندفاع يسير حياتنا الحيوانية، حل محله الرتابة والاستسلام الأعمى لرغبات وملامح أولئك ذوي الوجوه المكفهرة. لكن، ما النفع، كفاني اجتراراً لحوادث الماضي الجميل.

في محاولة للتخفيف عن الحمار، وهو قد صمت، تدخل أميرنا محاولاً التهوين عليه:

– لا تحزن يا صديقنا أننا معك. ما حصل لك من حنين كان أمراً طبيعياً. كذلك البشر مثل الحمير يظلون يحنون دائماً للشيء الأول، البيت الأول، الوطن الأول، الحب الأول، الصديق الأول، الكاميرا الأولى، الصورة الأولى..

واضح أن أميرنا كان داخلاً في الجو الفوتوغرافي. وجدناه بعد نطقه (الكاميرا الأولى والصورة الأولى)، قد تنحنح وصفن قليلاً. ثم واصل:

– رغم أن الأول يا صديقي ليس بالضرورة هو الأفضل. لكنه نوع من وهم يفرض نفسه علينا ويقنعنا أن الجديد هو دائماً أسوأ من القديم، حتى تجد أن أمثالنا وحِكَمنا البشرية هي الأخرى تبحر في هذا السبيل، من قبيل المثل الشائع بهيئة حكمة تقول: (لا يكون أفضل مما كان). تجد أن مكور فلسفتنا لا يخرج عن تمجيد الماضي. لعل الظروف والأحداث والانقلابات في حياتنا عودتنا أن الجديد هو أسوأ من القديم دائماً وأبداً، وإذا لم يكن أسوأ وهذا ما

حصل مرات قليلة في تواريخنا، لم نقل عنه جديداً، ونعامله على أنه جديد لكي نطوره، بل أحاله فقهاؤنا ومنظرونا إلى قديم بعيد، قالوا عنه: هذا مثل ذاك. أو هو ذاك نفسه يعيد نفسه، عندها يطلقون حكمتهم المحببة إلى قلوبهم (التاريخ يعيد نفسه). كما ترى معي أيها الحمار الذكي أن الزمن قد تعطل عندنا. لم يعد يتمتع إلا ببعدين، ماضٍ وحاضر، ماضٍ تليد وحاضر بليد. عليك أن لا تتبع سبل البشر في التفكير يا صديقي، أنك ما زلت حماراً وتستطيع أن تفهم أن تلك الترهات ليست صحيحة. ليس صحيحاً أن الماضي أحسن من الحاضر. الصحيح أن الحاضر حين يكون سيئاً ويلعب ستين نفس، فقط لأنه يحاول التشبه بالماضي، أما لو تعامل مع نفسه على أنه حاضر يتطلع إلى مستقبل، لغدا أفضل بكل تأكيد. ابق يا صديقي كما أنت حماراً!!.. كل ارض هي برية صالحة لك.. وكل حمار هو أخوك وأن لم تلده أمك. مع هذا أنك أدخلتنا في شؤون تلك الجمهوريات الفوتوغرافية، ولم تتحدث بعد عن مأثرتك تلك التي جعلتك أشهر (مجاهد) في المنطقة، هل تعرف أنك صرت مشهوراً في العالم أجمع، أقصد عالم البشر..؟ هناك من يبحث عنك هنا وهناك لمجرد تقبيل جبينك أو حافرك، كما يدعي في كتاباته في الصحف، بينما آخرون يبحثون عنك لتنفيذ الحكم الشرعي بك. اخبرنا ماذا حدث!

لقد أسرف أمير جماعتنا بالشرح في تلك الظهيرة اللعينة، حتى غدونا نحسبه والحمار متآمرين علينا، يريدان إطالة معاناتنا وسط

الجو الزريبي الخانق، حتى أنك لتشعر أن ليس الشمس في الخارج وحدها من يطلق اللهب والحرائق، بل روائح الروث والأزبال تطلق سعراتها الحرارية بوجوهنا هي الأخرى. لقد نفذ الماء الذي كان معنا، وتحولت أجسادنا إلى ممر سريع لذلك الماء الذي كان.

لكننا غفرنا للأمير محاضرته الطويلة تلك، فقط لأنه عرج في نهايتها على محاولة حرف مسار سرد الحمار إلى الوجهة التي ننتظرها منه. كان مأخوذاً بالتفاصيل مثل أي روائي في زماننا هذا، بل لقد أسرف في تلك التفاصيل، التي لم تكن كلها تعنينا، كنا نريد الوصول إلى الأسباب الحقيقية التي جعلت منه حماراً سياسياً ولماذا رفض تنفيذ تلك العملية الشهيرة، وماذا حصل له بعدها وكيف وصل إلى هذه الزريبة، التي يبدو أن لها قصة غريبة. تلك كانت أهم أسئلتنا، وها هو يظهر لنا مثل أي بشر متلبساً إلى أذنيه بحبه الأول.

عاود الحمار سرده:

حصلت المأساة في الجمهوريات الثلاث على التوالي، بسبب سوء استخدام الفن من قبل بعض المشاغبين أو لنقل استسهال البشر التضحية بالحمير كحقول لتجاربهم الفاشلة. حصل هناك شيء أطلقوا عليه مسمى (ثورة)، بدأها رسام مشاكس. قام ذلك المشاكس بالتسلل إلى داخل المعرض القومي، بقصد تشويه لوحة للرئيس، كان قد رسمها أحد رسامي الرئاسة المرموقين، جاعلاً الرئيس برأس ذئبي يخترق دائرة لهب على شكل شعاع. حور ذلك المشاكس

ملامح وجه الرئيس من الذئبية إلى رأس الحمار. مط في الأذنين وفي البوز مع زوائد أخرى جعلت الرئيس في الصورة يبدو حماراً وليس ذئباً كما يشتهي..!! لا أدري شيئاً عن دوافع ذلك الرسام، إن كانت دوافع كيدية ضد زميله المقرب من القصر أو هي كيدية ضد الرئيس نفسه، الأمر المؤكد؛ أنه وبعد أن تسرب خبر صورة الرئيس بهالة الحمار، دخل قادة المعارضة الفوتوغرافية على الخط الساخن. لكن، لا أحد يعلم؛ هل كان الرسام جزء من مخطط رسموه هم له، أو أن العمل بمجمله كان فردياً ولا علاقة له بهم أصلاً.

تم اكتشاف الأمر، مع أول زيارة للمعرض القومي من قبل وفد أجنبي فيه عدد من الصحفيين. بينما الدليل الفني، كان يعد نفسه لشرح مغازي ومقاصد تلك اللوحة الشهيرة، ولماذا احب المواطنون هذه اللوحة دون غيرها لرئيسهم، وإذا به أمام صورة أخرى..!! رد الفعل الأول لذلك الدليل، كان الذهول الذي يشبه حالة إغماء على وشك الوقوع بين براثنها. أنعوج فكاه ومال وقال جمل غير مترابطة، لا هي تنتمي للغته الوطنية ولا هي للغة الأجنبية التي كان يجيدها كما يجيد لغة أمه وأبيه، ثم سقط مغشياً عليه. هكذا، يكون أمر تلك الصورة قد أفتضح، لوجود مراسلين وصحافيين أجانب، أبرقوا على الفور لمحطاتهم وصحفهم بالخبر. لتأتي بعده، التحاليل والمقابلات والتعليقات والتنبؤات وقال المصدر ونفى المصدر..إلخ إلخ إلخ وكان الجميع قد ركزوا على قضية الاختراق الأمني الفريد من نوعه

لدولة رئيس الجمهورية، الذي يفتخر على الدوام بمناسبة وبدونها، بامتلاكه لأفضل جهاز مخابرات في المنطقة.

بعد ذلك التطور المفاجئ والخطير، وضعت الأغلبية الصامتة يدها على قلبها وصار كل مواطن يتلمس رقبته من هول ما سيأتي. من جهة قام المعارضون بتكثير تلك اللوحة في دولة مجاورة معادية، في خطوة تصعيدية واضحة من جانبهم ومن جانب تلك الدولة. وبدءوا يوزعونها على شكل منشور صغير في الأسواق ومواقف السيارات والشوارع العامة. ومن جهة أخرى ورداً على ذلك التصعيد، تم إعلان حالة الطوارئ. رغم أن الحالة كانت موجودة أصلاً، لكنها فقط غير معلنة. استنفروا كل الأجهزة الأمنية وعلى رأسها شرطة الفوتوغراف وبدءوا بحملة إعتقالات واسعة، دشنوها بكل المشتبه بهم من مسئولي الدولة والحزب الحاكم، ثم المشتبه بهم من المعارضين. بالنسبة لرئيس الجمهورية، كانت الحملة بمثابة مناسبة للتنظيف الدوري، هو حتى بدون هذا التصعيد المعادي، يجري بين الفينة والأخرى حملات اسماها (حملات تنظيف)، تشمل الحزب الحاكم ومسئولي الدولة والمعارضة. حتى أن الأجهزة الخاصة، أخذت تنفذ تلك الحملات بروتينية وملل واضحين لتكرارها.

في تلك الأيام ولأسباب غير معروفة للمحللين السياسيين إن كانوا من الحمير أو غير الحمير، كان اثر ذلك المنشورالجديد بمثابة الصاعق الذي فجر ثورة شعبية، حسب المصطلح المستخدم في

صحافة الدولة المجاورة. خرج البشر في حشود ملأت الميادين والشوارع والأسواق، تتقدمها صورتان الأولى للرسام المشاكس، بعد أن فضحته أحزاب المعارضة، كل حزب يدعي بملكيته والثانية للوحته الشهيرة. وكانت تلك، هي المرة الأولى في تاريخ البشر، التي يكون فيها فنان مفجراً لثورة شعبية، هذا حسب ذاكرة كبار محللي الحمير.. وقد أكدتها تحاليل واستنباطات بشرية لصحفيين من خارج الحدود.

اشتغلت كل وسائل الإعلام، على مدى أيام وأسابيع لاحقاً، على نشاط ذلك الفنان ومراحل سيرته النضالية، باعتباره المرشح البديل المحتمل للجلوس على كرسي الزعيم الحالي. وفي كل المقابلات التلفزيونية والصحفية، كانت صورة الرئيس– الحمار في الواجهة.

الأمر الذي جعل من ذلك الرسام هدفاً آنياً لأجهزة شرطة الفوتوغراف وباقي الأجهزة الأمنية، حتى تمكنوا منه. لقد اختفى فجأة من بين أحضان الجماهير لتظهر جثته بعد أيام مشوهة ومقطوعة الرأس. ونكاية به وبثورته، وضعوا رأسه على صدره، قرب مزبلة في ميدان التحرير. دعيت إليها قنوات التلفزيون الفضائية لتصور المشهد وتبثه للعالم. الأمر الذي شكل صدمة رادعة للجموع الثائرة، وجعل المشهد الجماهيري الهادر ينحف مع مرور الأيام، خصوصاً وأن الأجهزة الأمنية، وبعد تيقنها من نجاح الصدمة، عملت على تكرارها مع أعداد أخرى من المعتقلين في سجونها. في

بضعة أيام تكاثرت الجثث مقطوعة الرأس والمرمية في المزابل. حتى تنبهت إحدى القنوات الفضائية للفرصة التاريخية، حيث سارعت إلى عقد صفقة مع تلك الأجهزة، تحتكر من خلالها بث مشاهد الذبح الحر والمباشر حصرياً للقناة. لم يتنبه لها أحد من المنافسين في البدء، لقناعة راودت الجميع، أن تلك المشاهد ما هي إلا مشاهد آنية، لا تستدعي عقد صفقات بينية أو عمودية. كذلك ثمة مبادئ وقيم للمهنة تقول بقدسية جسد الإنسان وموته. إلا أن تلك القناة السباقة لقطف سبق النشر لمشاهد قطع الرؤوس وتشويه الأجساد، قد أفهمت تلك الوسائل المتقيدة ما زالت، أنهم بلهاء وفاقدو خبرة، لأن المنطقة المعنية بالذبح، هي منطقة أصلاً خارجة على كل القوانين والأعراف. الأمر الذي اضطر قنوات المبادئ لعقد صفقات كذلك بينية، لكن ليس مع الجهات صاحبة العلاقة بالذبح الحر، بل مع تلك القناة صاحبة السبق، لتزودهم بمشاهد الذبح فور الحصول عليها. حتى أن إحدى الشركات المهتمة بإنتاج الأدوات المطبخية، تعاقدت مع تلك القناة الرائدة وحصرياً كذلك، على عقد قيل عنه أنه أغلى من عقد أغلى لاعب كرة قدم، بشرط أن تظهر القناة بضاعة الشركة من السكاكين المطورة قبل وبعد مشاهد الذبح الحر.

لكل تلك الأسباب، عادت المعارضات من جديد إلى العمل السري تحت الأرض وعادت معها الحياة إلى مجراها القديم. أما الحكومة

وإيغالاً منها بإذلال المنتفضين وإشعارهم بهزيمتهم الماحقة، عملت على تكثير صورة الرئيس بهالة الذئب إياها، ووزعتها في كل مكان، لم يخل شارع أو واجهة أو ميدان أو حتى بيوت المواطنين، من تلك اللوحة التي يطالعك بها الرئيس على هيئة ذئب خارج من دائرة اللهب ومتوثب لافتراس فريسته.

صحيح أن الحكومة قد دفعت ثمناً دبلوماسياً باهضاً لتلك الأفعال الترويعية، لكنه كان متوقعاً ومحسوباً بدقة من قبل الرئيس. في كل الأحوال،أن لديه ما يمكن التحصن به من فقرات القانون الدولي؛ على الأخص تلك الفقرة التي تمنع الخارج من التدخل بشؤون الداخل لأي دولة عضو في عصبة الأمم. أما منظمات حقوق الإنسان والحيوان والبيئة: دعوها تشجب وتستنكر وتعترض ولتفعل ما يحلو لها، في النهاية هي منظمات لم تنبت لها أنياب ومخالب بعد. هذا على حد تعبير رئيس الجمهورية، وهو يطلعهم على آخر تعليماته.. ثم أضاف تورية سودت الدنيا بعيون رئيس وزراءه؛ قالها بعد صفنة متوسطة الطول وهو يضع اصبعه السبابة على رأس رئيس الوزراء الجالس على يمينه:

– اسمعوني جيداً..! أنا غير معني بما يدور في هذا الرأس، قدر عنايتي بالرأس نفسه..!!

بعد فشل تلك الثورة، سرح الخيال بأحد المعارضين الشباب، للتنبه إلى سلاح جديد. طرح أمره في اجتماع سري لجماعته. قال ذلك الشاب:

– ... لقد اكتشفت سلاحاً لا يقل فاعلية عن أسلحة الدمار الشامل..!!

كان الخبر صاعقاً للجميع، حيث كل جماعات المعارضة ومعها حكومات المنطقة، الفقراء منهم والأغنياء، يسعون ومنذ زمن بعيد، للحصول على أسلحة الدمار الشامل، وقد دفعوا من ميزانيات بلدانهم الكثير حتى أفقروها، فقط للحصول على تلك الخلطة السحرية. لقناعة راودت الجميع؛ قائلة: أن الجميع سيحترمونك، فقط لو حصلت على تلك خلطة الدمار الشامل.

واصل ذلك المكتشف العزف على وتر تعذيب السامعين ليعطي لحديثه اللاحق الوقع المطلوب:

– السلاح الجديد مضمون الأثر والفاعلية. وهو فوق ذلك متوفر تحت أنوفنا. سوف لن نحتاج إلى مختبرات سرية أو معامل تخصيب أو ما شاكل ذلك. بل الغريب كيف كنا غافلين عنه طيلة الوقت..!!؟ بهذا السلاح، سوف لن نسقط الرئيس والحكومة بل سنسقط العالم كله، وسترتفع رايتنا خفاقة فوق أسوارنا وأسوار أعدائنا، وستكون يدنا هي العليا ولو كره الكافرون.

ثم أخذ يردد آيات ومقتبسات من نصوصه المقدسة، تدور حول الغزو والفتح والعلو وأهميته في نشر الدين الصحيح. كان ذلك الشاب مشهوداً له كخطيب مفوه. بعد أن جعل من المجتمعين آذاناً صاغية لما سيتفوه به لمعرفة (رب) هذا السلاح الجديد. صمت. بل بالغ في صمته وهو يدور عيونه المتوقدة في العيون والآذان الصاغية. حتى أخذ الهمس بين الحضور يدور بما يشبه أزيز كورة نحل. أخيراً، رفع يده عالياً وهو يصيح:

– أخواني عليكم بالهدوء!!

ولما هدأ أزيز النحل.. قال بصوت يكاد لا يُسمَع:

– السلاح الجديد.. هو الحمار!!!

لم يعلق أحد. اكتفوا بالبحلقة تارة بعيون بعضهم وتارات بعيونه هو، لعلهم يستشفون فيها ملمح مزاح أو تورية أو أي شيء آخر، باستثناء أن يكون جاداً في سلاحه الجديد. قطع هو حملة البحلقة وفر الرؤوس وتدوير العيون:

– نعم. الحمار. هو السلاح. سنجعل من الحمير أسلحة دمار شامل. من الآن سيتوجب على كل خلية من خلايانا النائم منها والصاحي، أن تستطلع لها زرائب للإخفاء وأخرى بديلة في حالات الطوارئ. كذلك على خلايا التمويل أن تجمع لنا أكبر عدد ممكن من الحمير. قبل البدء بحملتنا، يجب أن يكون تحت تصرفنا مخزون تكتيكي وآخر استراتيجي من الحمير. سنقوم بعملنا هذه

المرة بشكل منسق. نطلق كل يوم حماراً من مكان منتخب بعناية من إحدى المدن، وعلى عدد المدن. نلبس الحمار ثوباً جديداً مفصلاً على جسده يكون قماشه من صور الرئيس الكثيرة..!! تتذكرون ماذا فعلت صورة ذلك الرسام بالحكومة..؟

الآن فقط، سحب الحضور أنفاسهم وبدلاً من الرد على الاقتراح، استغرقوا بضحك صاخب، ربما كانوا بأمس الحاجة إليه، لإراحة أعصابهم من ذلك التوتر الذي تعمده الخطيب مكتشف السلاح الجديد. لقد ضحكوا طويلاً وتخلل الضحك الكثير من الإطراء ومسح الذقون والعيون. الجميع كان يضحك، باستثناء الخطيب، ظل على وقفته صامتاً بملامح الجد ومدوراً عيونه في عيون الضاحكين. انتهى الاجتماع بالموافقة الجماعية على مشروع الخطيب–المكتشف. والعزم على البدء بتنفيذه بأسرع وقت ممكن.

بدأ العمل. عند الفجر تطلق المجموعة الصغيرة حمارها المختار وهو مغطى بصور لرئيس الجمهورية من حافره إلى قمة بوزه. يظلون يراقبونه عن بعد وهو يسير الهويني في الأسواق والشوارع كناطق رسمي باسم المعارضة. وبعد أن تتجمع الجموع من البشر المندهشة أو الخائفة أو الفضولية، تتعدد الأسباب والتقرب من الحمار واحد. ثم بعد دقائق يبدأ الجمهور بالتواري والابتعاد من جادة الحمار، منهم من يتوارى سريعاً ومنهم من يأخذه الفضول لمتابعة سير الحمار ومع اشتداد حركة أسواق المدينة يتضخم ذلك

الحشد السائر وراء الحمار، حتى ليبدو المشهد كأن الحمار هو الذي يقود الحشد الجماهيري الفرحان، لكنه، الخائف والمذعور كذلك، لأن العيون تظل تدور في محاجرها بقلق وخوف من طلائع قوات شرطة الفوتوغراف. ومع أول بروز لتلك الطلائع، تتفرق الجماهير مندسة في هذا الزقاق أو ذاك ويظل الحمار وحيداً فريداً يسير الهويني خال البال وكأنه لم يقلب عالي المدينة على سافلها. في البدء كان شرطة الفوتوغراف، يكتفون بإلقاء القبض على الحمار، ومن ثم خلع لباسه الفوتوغرافي. ليطلقوه من جديد عارياً كما ولدته أمه. لكن وبعد اكتشاف سلاح المعارضة الجديد، صدرت الأوامر لمفارز الشرطة، باستهداف رأس الحمار أولاً. سقط الكثير من الحمير في حومة ذلك الوغى الجماهيري، دافعين حياتهم ثمناً لتحقيق أهداف لا شعير لهم فيها ولا عشب. بينما الجماهير واظبت على إطلاق سيقانها للريح مع أول إطلالة لقوات الشرطة. مع تكرار تلك الحوادث وبروزها المنظم في مدن مختلفة ومتباعدة، بل في مواقع مختلفة من نفس المدينة وفي ذات الوقت، لزيادة التشويش والإرباك لقوات الشرطة، اشتد كذلك رد فعل الشرطة، بتحويلها تلك المسيرات إلى مشاهد دموية من القتل والتعويق. خصوصاً وأن بعض الحمير وبعد اشتداد صوت إطلاق النيران، صارت هي الأخرى تهيج وتهرب من ساحة المعركة بطرق عشوائية، تسببت بقتل الكثيرين من البشر أولئك الذي يكونون أصلاً في الشارع ولا علاقة لهم بما يجري. بمرور الأيام زادت أعداد الأبرياء الذين

يذهبون ضحية هياج وهروب الحمير وغشيانها أكثر الأماكن ازدحاماً. في إحدى المرات هرب حمار باتجاه سوق مزدحم، حيث حصلت هناك مجزرة مروعة بين البشر، وكان هو من ضمن الضحايا.

بعد حين تنبه المعارضون إلى خسائرهم في الحمير. حيث تحول بحثهم عن حمار إلى ما يشبه البحث عن المدفع العملاق. مجرد ذكر اسمه يثير الرعب والقلق بين الناس. لقد ارتفعت أسعار الحمير، بل قل ندرت تلك الحمير. حصل هذا، بعد أن استوردت الحكومة تقنية الحامض النووي، بمخابرها وتقنييها من الأجانب. استبقت الأمر بحملة شاملة لفحص جميع الحمير المملوكة للفلاحين والعتالين والتي في حديقة الحيوان. غطاء الحملة كان انتشار مرض أطلقوا عليه (حمى الحمار الوردي) وكان مرضاً وهمياً، حيث الجينات اللونية للحمير تحتوي ربما على كل الألوان إلا الوردي..!!. لكن فحوى الأمر كان أخذ الحامض النووي. هكذا يكون من السهل الاستدلال على صاحب الحمار الصريع من حامضه النووي، لتتكفل به الأجهزة الأمنية لاحقاً. بوصول الحرب إلى هذا المفصل الخطير المهدد بحرمان المعارضين من سلاحهم الجديد، كان على صاحب الاكتشاف أن يبادر إلى خطة جديدة يحمي بها سلاحه. لم يعد الاستهلاك المتزايد للحمير يسير في صالح معركتهم. ناهيك عن الحالات المتكررة التي ذهب ضحيتها

عدد من قادة وكوادر المعارضين، نتيجة وشايات أصحاب الزرائب، على الأخص كوادر خلايا التمويل، تلك التي تدور على الزرائب لتجنيد المزيد من الحمير. ليتحول أصحاب الزرائب بعد حين ومعهم كثير من الفلاحين، إلى أهداف عسكرية للمعارضين السريين وللشرطة السرية كذلك. كل طرف يتهمهم بالخيانة والعمالة للجهة الآخر.

أخيراً، توصل صاحب الاكتشاف إلى وسيلة يحافظ بها على خزينهم من الحمير، أو على الأقل يقلل من الخسائر. الوسيلة الجديدة كانت تتطلب تفعيل الدور البشري في المعركة، وعدم ترك العبء كله على الحمير. صار العمل يتطلب خليتين الأولى للإطلاق والثانية للخلع. واجب خلايا الخلع، وبعد تدريب الحمير على وسائل تعتمد الإشارات والحوافز المادية، لدفعها خلال المطاردة على اختيار أكثر الأزقة ضيقاً في المدينة، أي تلك الحارات الضيقة التي تشبه المتاهة، حيث تكون المطاردة لصالح الحمير بعد تحييد الآليات. بعد نجاح الحمار وتخلصه من أزيز الرصاص المتطاير حول رأسه، سيكون هناك أحدهم مكلفاً بخلع الثوب الفوتوغرافي من على الحمار ويتركه لمعاودة ركضه. هذه المرة بلا شبهة، لا أحد يستطيع اتهامه بشيء، هو حمار كغيره من الحمير المسالمة المنتشرة هنا أو هناك. ليظل ذلك الحمار الناجي، تحت مراقبة عضو آخر من خلية الخلع، لتشخيص محل اختفاءه الأخير، للإتيان به لاحقاً.

كما قلت كان لذلك التكتيك الجديد أثر في تقليل الخسائر وليس إلغاؤها تماماً، حيث حصل في حالات كثيرة، أن تابعت الشرطة الراجلة ذلك الحمار وأردته قتيلاً أو لحقت على مداهمة ذلك المعارض السري وهو متلبس بالخلع لترديه قتيلاً، كذلك أخذ بعض أصحاب الزرائب التي يغشوها حمار غريب بالمبادرة بالتبليغ عنه لتبرئة ذمتهم.

مثلما للمعارضين السريين تكتيكاتهم، كذلك للحكومة تكتيكاتها المضادة. بعد تيقن الحكومة وأجهزتها المختلفة من التكتيك الجديد للمعارضة، بادر الرئيس وفي خطوة على شيء من الجرأة هذه المرة، إلى إطلاق تلك المحملة المسماة ب–(تجفيف المنابع)، لقتل وإبادة كل أنواع الحمير المعارض منها والمسالم. لا حمار بعد اليوم في أراضي الجمهورية. رافق الحملة بالطبع حملة موازية، على مستوى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، وباتجاهين، الأول ترغيب الفلاحين والعتالين بالاستغناء عن الحمير بعضلاتهم، إن كان في الحراثة أو جر العربات الخشبية. إضافة إلى وعد حكومي باستيراد آلات هي نوع وسيط بين السيارة والدراجة الهوائية. والاتجاه الثاني، العمل على تشويه تاريخ وسمعة الحمير وتبشيع أية خدمات كان ممكن أن تقدمها. مستغلين في ذلك مشاهد القتل والدماء السائلة في الشوارع، لتحميل الحمير كامل المسؤولية عنها.

لكن، تبقى قوانين الصراع في كل مكان ليست سكة باتجاه وحيد. على الدوام هناك اتجاه معاكس لاتجاه الحكومة. ظهرت الآن معارضة من نوع جديد. لا تعتمد على تجنيد الحمير ولا حتى الهجوم على الحكومة ببيانات أو صور أو أي وسائل أخرى، بل تمارس عملها المعارض بأسهل وآمن الوسائل. ببساطة شديدة، هي عملت على تجنيد مفردة الحمار بدل الحمار نفسه..!! منطلقين من فكرة تقول أن الصراع السياسي في النهاية هو صراع مفردات. والبشر في هذه المنطقة، درجوا ومنذ قديم الزمان، على تحميل المفردات معان كثيرة، إن كان باتفاق ضمني أم صدفوي. هكذا تكون مفردة (حمار) قد دخلت في قاموس التورية الشعبية. يكفي أن يذكر أحدهم في تجمع ما مفردة (حمار)، لتجد هذا الجمع قد انشق إلى شقين، أحدهما تأخذه نوبة ضحك صاخب وشامت والشق الثاني ينتابه الخوف والذعر حتى يولي الأدبار كالملدوغ. الشخص الغريب الذي يراقب المشهد، سرعان ما يعتقد أن القوم مجانين. إذ لم يسمع ما يثير كل تلك ردود الأفعال المتناقضة.

أستطيع القول –أُذكُر القارئ؛ أن الحمار يتحدث عن نفسه هنا وهو وحده من يتحمل مسؤولية ما يقوله وليس الكاتب– لقد تدحرج الصراع السياسي الحميري إلى مديات جديدة. لكنها، كما قلت، من نمط جديد، كلها لغوية، سداها ولحمتها المفردات وليس الطلقات. لقد ترادفت مع مفردة (حمار) مفردات أخرى من قبيل (استرنا يا

رجل) أو (دخيلك بلا هذا الاسم) أو (أبو المصائب) أو (دوحان) وهذا اسم حركي ساهمت المعارضة بنشره كناية بالحمار.. وغيرها الكثير من المترادفات التي لا تعني بذاتها أي شيء خطير، لكنها وقد دخلت حومة الوغى السياسي، صارت صواعق للتفجير في كل مكان تنطلق به. حتى أن بعض جماعات المعارضة وبالأخص الشباب منهم، قد طوروا المفردات ذاتها إنما باختزالها إلى حروف صوتية مأخوذة من المفردة الأم (الحمار)، كأن يقوم أحدهم بتفعيل حرفاً من الحروف على نوتة النهيق وهذه كانت مفضوحة، آخر يفعله على نوتة أغنية شهيرة أو لطمية شهيرة، كل يفعل وفق أسلوبه النضالي. وفي كل الأحوال والظروف، أن الأغلبية الصامتة وهي المستهدفة بتلك الوسائل، ظلت قادرة على متابعة وفهم المقاصد الخلفية لكل المفردات المترادفة.. كما هي مستعدة ولا إرادياً لفتح عيونها ورؤوسها بكل الاتجاهات، تحوطاً واحتراساً من مداهمات شرطة الفوتوغراف.

بعد كل تلك الحملات، صار ظهور حمار في مكان ما، يشبه ظهور أسد غضنفر مكشراً عن أنيابه على حين غرة في تجمع بشري. ترى الجموع وحداناً وزرافات، تركض في كل الاتجاهات وكل يحاول التواري بأسرع ما يمكن، عن ذلك الوحش الجالب للموت الأكيد. لأن التجربة علمت أولئك؛ أن ظهور الحمار سيجلب سلسلة من الأحداث باتت معروفة، تبدأ بالمخبر الذي يوصل

المعلومة للشرطة، ومن ثم ظهور الشرطة والمطاردة الهوجاء وإطلاق النار العشوائي، الذي يتسبب في كل مرة بالكثير من حوادث القتل والتعويق للبشر. لعل التاريخ سيسجل ولأول مرة في سجلاته أول سابقة يتحول فيها الحمار من كائن مهمش ومُستغَفل ومغضوب عليه، إلى كائن مخيف متوحش يتسبب بكل ذلك الرعب للبشر. لأول مرة يخاف الإنسان من الحمار كل ذلك الخوف الذي يجلب الفزع والتطير.

أما مأساتي الفردية يا أصدقائي، فكانت ذكائي المبالغ به. لتعلموا يا أصدقائي أن الذكاء يكون في كثير من الأحيان أخطر من الغباء. الآن فقط، اكتشفت أن محاولات البشر المستميتة لدمغنا بالغباء، كانت في الواقع لمصلحتنا، رغم أنهم لم يقصدوا هذا..!! لا أدري إن كنت امتلك ذكاءً نادراً أتميز به عن أشباهي أو هو حظي العاثر الذي ورطني، بحماسة، هي على الدوام زائدة ومبالغ بها لخدمة البشر وتنفيذ مآربهم. كنت من الأوائل الذين اكتشفوا تلك الأزقة الضيقة وأنا أحاول التملص من مطاردة رجال الشرطة وإطلاق النيران الذي تلاحقني أصواته وأزيزه. اكتشفت ذلك التكتيك في الانسحابات، قبل أن يكتشفه المعارضون السياسيون ويعملون به لاحقاً. لقد نفذت الكثير من العمليات الناجحة. ما أن اسمع أصوت العيارات النارية، حتى أركض بكل ما أوتيت من قوة الركض إلى تلك الأزقة، كذلك صرت بعد أن يطلقوني أختار مساري بما يجعله

قريباً من تلك الأزقة الضيقة في المدينة، ناهيك عن تكتيكي الخاص بي في الركض، كنت لا أركض بشكل مستقيم، إنما بشكل زكزاكي. صحيح أني تسببت بحوادث قتل كثيرة للبشر الذين يجلبهم حظهم العاثر في طريقي، لكني لا أتحمل مسؤولية تلك الحوادث، يتحملها من أطلقني وألبسني ثوب السياسي المعارض رغماً عن أنفي ومن طاردني ولاحقني بكل أنواع الأسلحة، وكأن له ثأر مع كل فصيلتي.

في بدايات الحوادث كنت أظل تائهاً أدور من زقاق إلى آخر، ضمن تلك الأزقة التي تشكل ما يشبه المتاهة للداخل فيها، لكني حفظت تضاريسها وتعاريجها من أول يوم، وما أن يهبط الظلام، أخرج من هناك قاصداً زرائب عديدة اكتشفتها بالتدريج، لا أكرر ذات الزريبة في كل مرة، بل أُبدل الزرائب وأحياناً أقصد الخلاء المفتوح حول المدينة. في البدء، كان يتكفل البعض من المارين في تلك الطرقات، بخلع ثوبي السياسي، خوفاً على نفسه بالطبع. لحين وصول أحد المعارضين، ليعيدني إلى تلك الزريبة الترابية الظلماء.

بعد مدة من التآلف بيني وبين المعارضين السريين، أطلقوا علي اسماً من تلك الأسماء التي يطلقونها على بعضهم، قالوا عني: (أبو المدد). دون أن أعلم من هو ذاك ال–(مدد) الذي جعلوه ابناً لي، وهل كان حماراً..؟ ثم لاحقاً، أسماء كثيرة أُطلقت علي لأنهم كانوا يناقلوني من جماعة إلى أخرى، وكل جماعة تطلق علي اسماً محبباً لها دون الجماعة الأخرى، رغم أن كل الأسماء لم تكن من الأسماء

المتداولة بين الناس، لعلها تعود إلى ماض بعيد لأولئك المعارضين. لم أعد أدري شيئاً عن أمر تناقلي بين الجماعات، هل كان بيعاً وشراءً مثلاً.. أم هو مجرد إعارة.. لأن كل شيء يتم في الظلام وبعيداً عن حضوري. كل شيء يجري بسرية عالية. فهمت من تلك التجربة أن البشر كثيراً ما يخافون من بعضهم، ربما لأن الغدر هو من خصالهم اللاصقة بهم. حتى أشكالهم لم تكن معروفة لبعضهم، كانوا ملثمين على الدوام حتى وهم يتحادثون رجلاً لرجل. الوحيد غير الملثم بينهم كنت أنا. وهذا شكل آخر من اللاعدالة. هم يعرفونني وأنا لا أعرفهم..!!

بعد مدة من التناقل بين أوكار الجماعات المختلفة، صرت مشهوراً بين الجميع بـ(الحمار السياسي أبو المدد)، لا أدري لماذا استهواهم الاسم الأول، الذي أطلقته علي أول جماعة من تلك الجماعات. لقد تناقصت أعداد الحمير، حتى كادت أن تنقرض تماماً لولا البراري الواسعة التي لجأت إليها. أستطيع أن أتخيل الأمر في تلك البراري، وكيف أن الحياة الطبيعية للحمير، قد عادت إلى بداياتها الأولى قبل تدخل البشر في شؤون الحيوانات. لعلها فائدة جنتها فصيلتنا، تحسب لحكومات الفوتوغراف ولمعارضي تلك الحكومات.

ذاع صيتي بين الجماعات، بتنفيذي الناجح للمهام. ما أن يطلقوني وفق خطة محكمة من خططهم، حتى أظل ذارعاً الشوارع والأسواق لحين أن تتناهى إلى سمعي تلك الإشارة، اقصد صوت الطلقة

الأولى أو الصلية الأولى. كان الحظ أو شيء آخر لا أدريه، في كل مرة حليفاً لي للإفلات من الضربة الأولى، بعدها أعرف تفاصيل الخطة من إطلاق القوائم للريح بركض رهوان لغاية الوصول إلى الدروب والأزقة، وفي مكان ما من تلك المتاهة سيأخذ بلجامي أحدهم وصولاً إلى وكري تحت الأرض.. هناك أجدهم بانتظاري ليربتوا على ردفي ويقدموا لي البرسيم الذي صار يصلهم من دول الجوار عبر عمليات تهريب معقدة. بمرور الأيام وكثرة المهمات التي نفذتها، صرت جزءاً من مشاريع المعارضة.

بالنسبة لي وبعد التكرار، تحول العمل السياسي إلى تسلية، بل حتى هو مريح ولا ينقصه سوى أتان خرجت للتو من الجحوشية، نتعاون معاً على قضاء أوقات الفراغ الطويلة. لم تعد حمولتي غير صور فوتوغرافية لا تشكل ثقلاً يذكر. ثم سريعاً ما أتخلص منها وأظل طيلة اليوم طليق الظهر. لكن فقط، لولا هذا العمل السري والكهوف والأوكار تحت الأرض..!!

ظل الضجر من العيش في تلك الزرائب التحت أرضية، يراودني مع كل صفنة. الأمر الذي جعلني أفكر بالهروب والخلاص بشكل كامل من سيطرة وتحكم البشر في شؤوني. في تلك الساعات والأيام التي كانت تطول وأنا في جوف الظلام، استعدت الكثير من وقائع حياتي الماضية. وكان من أهم ما استعدته تلك المعلومات التي كانت تخبرني بها الأتن أيام زمان، زمان زريبة "أبي عبدو" وبراري

الأتان.. زمن الانطلاق والتوهان دون لجام. كن هناك يتبادلن أخباراً وحكايات عن برارٍ بعيدة، ما زال الحيوان فيها حيواناً، ولم يحصل أي تداخل بينه وبين الإنسان، بل، قيل أن الإنسان هناك يحترم حيوانية الحمير بحذافيرها، ويصونها بقوانين قاسية لمن يخالفها. صحيح، لم أعرف شيئاً عن الاتجاه الذي سأسلكه بحثاً عن تلك البراري، لأني كما قلت كنت حينها حماراً قانعاً بقدري المتأرجح بين زرائب الربطاء وبراري الطلقاء، لم أبال كثيراً بالتحري عن تلك الاتجاهات. لكني تعودت أن أثق بحاستي فوق الحمارية، تلك التي ترشدني في أزمان اضطراب الحواس إلى الطريق الصحيح. الحاسة إياها التي أنجتني من حملات التصفية والتطهير التي استعرت في الجمهورية التي كنت فيها.

كنت أحلم بأمان البراري البعيدة، بالبعد عن الإنسان وصراعاته وشروره وأنانيته وغباءه الفج. أخيراً، نجحت في الهروب من أولئك أصحاب الجحور والزرائب التحت أرضية، قاصداً البراري البعيدة. حدث أن نسى أحدهم أحد أبواب الزريبة مفتوحاً، عندها لم يكلفني الأمر أكثر من دفعة رأس بسيطة، لينفتح أمامي عالم الحرية. كان ليلاً ربيعياً، روائح الأرض تثير الخدر في القوائم، لكني تجاهلتها، لم أدعها تتمكن مني. كان هدفي واضحاً في رأسي، لا اركن للأمان إلا في تلك البراري البعيدة. بالمناسبة نحن الحمير، لا نعرف شيئاً اسمه التفكير الاستراتيجي الذي يزعم البشر انهم يتمتعون به، نحن

نفكر في الخطوة التي علينا خطوها الآن وحالاً، وبعد أن ننجزها نفكر في التالية وهكذا. هذا على صعيد التفكير في مشاريع لم نعتدها بحكم التكرار، بل علينا اقتحام أسوارها. أقول، خلال التفكير في الخطوة التالية، برزت أمامي عقبتان علي التخلص منهما معاً، وإلا كأنك يا أبو زيد ما غزيت، كما يردد البشر هذا المثل في قرية "أبي عبدو". وأنا بالطبع لا أعرف شيئاً عن ذلك الزيد وأبيه وغزوته. العقبة الأولى كانت؛ أن عبوري الحدود سوف لن يبدل من الأمر شيئاً، لأنه سيجعلني في حدود جمهورية أخرى من جمهوريات الفوتوغراف، جرت فيها ذات الحملات الحميرية وإن أعلنوا في وسائل الإشاعة الجماهيرية أنهم أوقفوها. والعقبة الثانية أن وشماً لعيناً على ردفي الأيسر؛ كان يشكل معلماً مفضوحاً يدل علي حيثما حللت، خصوصاً بعد أن ذاع صيتي في وسائل الأعلام بذلك الوشم. بمعنى قد أكون مطلوباً هناك من قبل كثير من الفضوليين لمجرد رؤيتهم الوشم على ردفي، بينما أنا أحلم ببرية بلا بشر، أو على الأقل برية مع بشر يحترمون فيها الحيوان. نسيت أن أخبركم؛ أن الوشم قد تحول في معمعة النضال إلى اسم جديد أُضيف إلى أسمائي الكثيرة، صرت (أبو المدد ذو الوشم) وأحياناً كان يستعاض عن ذلك الاسم الطويل بـ(ذو الوشم) فقط. الوشم في حقيقته هو مستحدث، لم تورثني إياه الطبيعة، عبارة عن جرح كبير في ردفي الأيسر من رصاصة حارقة، تعرضت لها في إحدى المطاردات. رسم الجرح نفسه على شكل سيف معقوف ومحروق الحواف على

بياض جلدي الناصع. لذلك سيكون من السهل الاستدلال علي في أي مكان من تلك الجمهورية، وبالتالي تجنيدي من جديد أما في صفوف المعارضة أو صفوف الحكومة. الواضح؛ أن تكتيك حمرنة الصراع السياسي قد شاع على نطاق الجمهوريات الثلاث. كنت أفكر بهذا وأنا أبحث لي عن منفذ من بين تلك الأسلاك الشائكة. أردد مع نفسي وأسائلها: كيف لي أن أنج في الهروب من وشمي؟

ما أن اجتزت الحدود الدولية، حتى دهمت أنفي تلك الرائحة الحريفة التي أعرفها. وكأي حمار طبيعي، اقتفيت مسيل الرائحة إلى حيث المنبع بحاستي الأنفية. الحاسة التي حافظت على استمرار نوعنا عبر الدهور، لكن انظروا كيف حولها الإنسان إلى أغبى وأخطر حاسة لدى الحمير. لا يفلت من الوقوع في شراكها أذكى حمار. لم يطل بي السير بأنفي باحثاً عن تلك الرائحة، حتى سقطت ببراثن أول كمين قد نصب للحمر الغبية.

في تلك الجمهورية ومن بين التكتيكات الجديدة التي ابتدعتها شرطة مكافحة الحمير، أنها لا تنتظر ضربة العدو لترد عليها، بل صارت هي من يبادر إلى الضربة الأولى. تلك الجمهورية من بين الجمهوريات، تميزت بذكاء وسرعة بديهة رئيسها. لقد ابتدع ذلك الرئيس وبمعونة مساعديه، طريقة فيها من الذكاء والشيطنة ما فيها، لتنفيذ شعار (تجفيف منابع الحمير) بشكل مؤكد. لم يرتكن إلى تلك الوسائل التقليدية، بالتضييق والمزيد من التضييق على أصحاب

الزرائب والفلاحين، إن كان باستخدام تقنية الحامض النووي أو الإعدامات الدورية وبشكل روتيني لجماعات مختارة منهم. بل لجأ إلى وسيلة فيها الكثير من الإبداع. أطلق عليها (مصائد المغفلين). في تلك المصائد لا يسقط فقط حمير البرية المرشحة للتجنيد، بل حتى الحمير المتخفية في هذه الزريبة أو تلك. حيث تُدفع إناث الحمير دفعاً مدروساً إلى مساحة من البرية، على حافة التجمعات الفلاحية. تكون مساحة مسيطراً عليها، تُترك فترة من الزمن بسلام، لإعطائها الشعور بالأمان، إنما تحت أعين الأجهزة التي تراقب براً وجواً تلك المساحة. مؤكد أن الحمير هي كائنات اجتماعية، تفضل العيش في قطعان على العزلة والانفراد في أوكار سرية ومنعزلة، والأمان سيجعلها تلعب وتمرح وتطلق تلك الروائح الحريفة، مما سيستقدم حميراً أخرى تكون هائمة على وجهها في البرية بما يشبه المغناطيس. هكذا سيكون الأمر أبسط وأيسر في الحرب على الحمير، بدلاً من مطاردتها في كل فج عميق، ما عليك غير أن تستقدمها إلى بيئة تبدو آمنة لها، لتنقض عليها لاحقاً بوسائلك المجربة. في تلك المساحات المنتخبة بعناية ينتظرون وصول العدد إلى رقم محدد في أجندتهم، ليباشروا حملات التصفية براً وجواً، تاركين من القطعان المتجمعة هناك في كل مرة، عدداً محدوداً من الذكور والأتان ليشكل بدوره مصيدة للمغفلين الجدد.

لقد دخلت بقوائمي في واحدة من تلك المصائد. لكني، ولذات السبب الذي لا أدريه، كنت في كل مرة أجد نفسي مع المجموعة الناجية، كيف؟ لا أدري، لعله الحظ مرة أخرى أو تعودي على الركض المخادع وعلى بعض فنون التواري سريعاً عن أنظار الرماة. حتى تنبه أحدهم لوجودي في إحدى حملات الرمي الحر ، في الحقيقة هو تنبه لوشمي. الوشم كان بارزاً ويمكن رؤيته حتى من قبل مساعد طيار في طائرة عمودية، يراقب المغفلين ويعد عليهم الأيام. بدا ذلك الرجل مطلعاً من خلال الصحافة على أخباري ووشمي. واضح أن قصتي أو مأثرتي كما أطلقوا عليها في الصحافة قد انتشرت ووصلت إلى أبعد بقاع الأرض عبر البث الفضائي.

لا أود التعليق على وسائل أولئك المراسلين ودأبهم على استغفال المشاهد والمستمع، بتلفيق القصص أو نفش وترتيش وتوليف قصص وحكايات وأخبار هي في حقيقتها بسيطة وغير ذات شأن. أنهم، في العادة ولإعطاء مصداقية لقصصهم المرتشة والملفقة، دأبوا على أن يعزوها لـ(مصدر رفض ذكر اسمه لدواعي أمنية). وعلى لسان ذلك الذي رفض ذكر اسمه، تتفتق قرائح المراسلين والصحافيين، بقصص معظمها تكون من نسج الخيال. علمت لاحقاً، الكثير من تلك القصص الموضوعة على لسان ذلك الشاهد المغفل والمذعور من الأمن، حول مآثرتي وجهاديتي العالية. واحدة منها تحدثت عن جائزة وضعتها الجمهورية التي كنت مناضلاً سياسياً فيها، بمبلغ كبير جداً من عملتها لمن يعطي معلومات

توصل الشرطة لي. وأخرى تتحدث عن براعتي في الركض والتخفي وخداع المطاردين. حتى أني صرت شغل المحللين الكبار والصغار منهم. وقصص أخرى عن تجهيز حملة خصيصاً للإيقاع بي أطلقوا عليها مسمى (الغضب اللين)، قادها مدير شرطة الفوتوغراف بنفسه. لأن أمر الرئيس كان صارماً:

– أما أن تأتي لي به.. أو تظل أنت هائماً على وجهك في البرية..!!

لقد مشطوا كل البرية القريبة من العاصمة، وقبضوا على كثيرين من الحمير المطاردة والمطلوبة، لكنهم لم يقبضوا علي. لأني حينها كنت في زريبة سرية لا تبعد سوى كيلومترين عن القصر الرئاسي، تعود لأحد الأثرياء الناقمين على مدير الشرطة. أراد ذلك الثري أن ينكّد أو يخبّث على مدير الشرطة، لأن هذا قد أزال في أحد الأيام جدارية تعود لجد ذلك الثري، كانت موضوعة في باب بيته لكنها أقرب إلى رصيف الشارع. مما اعتبره مدير الشرطة مخالفة لقوانين الجمهورية التي لا تسمح لغير جداريات الرئيس للنصب في الشوارع العامة. قيل بعد تكلل تلك الحملة بالفشل الذريع، إنهم قدموا حماراً وشموا على ظهره بما يشبه سيفي المعقوف والمحروق، وقدموه للرئيس ولاحقاً للشعب على أنه أنا.

شخصياً، حمارياً، لم يكن لي علم بكل تلك القصص، التي سمعتها من أفواه الجماهير المحتشدة على طول الطريق الواصل إلى القصر الرئاسي في الجمهورية الثانية. لأن أحداً من أولئك المعارضين

الذين كانوا يناضلون من علي ظهري لم يخبرني بها. أقول، لعل ذاك مساعد الطيار كان على علم بكل القصص والروايات الصحفية، لذلك ارتأى أن لا يقتلني وإنما يبلغ رئيسه بوجودي وهذا أبلغ رئيسه الأعلى كذلك ومن رئيس إلى رئيس حتى وصل الأمر إلى رئيس الجمهورية. الذي أمر بإحضاري على الفور إلى القصر الجمهوري. ليس هذا فقط، أمر كذلك بإعداد استقبال جماهيري تلفزيوني يليق بتاريخي النضالي المضيء.

هكذا هي أقدار الحمير، بدلاً من أن أتحول إلى وليمة عامرة للجوارح في مصائد المغفلين تلك، حملوني بطائرة عمودية، حطت بي في مكان قريب من قصر الرئيس. هناك شاهدت البشر زرافات ووحداناً، كل يحاول أن يأخذ مكانه على جانبي الجادة التي كان علي المرور بها، في طريقي إلى رئيس الجمهورية. كانوا جميعاً يصرخون بأصوات وأهازيج لم أفهم منها شيئا. وفي مرحلة من الطريق، تقدم أحدهم وغطى جسدي بالعلم الوطني للجمهورية، ثم لحقته فتاة صغيرة طوقت عنقي بطوق من الورد والياسمين. باختصار كانت مسيرة استعراضية، أراد منها رئيس الجمهورية، التشهير والسخرية من خصمه اللدود خلف الحدود، الرئيس الذي خدعه مدير شرطته وقدم له حماراً بوشم مستنسخ وليس أصلي. لقد أظهره مجرد مغفل وطرطور وعاجز عن اصطياد حمار. كذلك أذاعت نشرة أخبار الجمهورية المسائية الخبر، وجعلته بعد أخبار استقبالات الرئيس للوفود والسفراء، وقدمته بصيغة رسمية رصينة

وجافة، لكنها تستبطن الشماتة والغمز من قناة ذلك الرئيس المغفل.
كان الخبر: عثرت قواتنا الخاصة على الحمار الشهير بـ(أبي المدد ذي الوشم)، الحمار الذي أرَّق رؤوس وعروش الطغاة المفسدين في الأرض. وتكريماً لمآثره الكثيرة، قرر السيد الرئيس تكريمه باستقباله في جنائن قصر السلام.
من الخصال الأخرى لرئيس الجمهورية التي أصبحتُ ضيفها المميز، أنه دلل وبالملموس على انسجامه مع مساع جمعيات حماية الحيوان الوطنية والعالمية. وذلك بحدبه الشخصي وحضوره المستمر في كل نشاطاتها ومشاريعها. حتى أن وسائل الإعلام كثيراً ما تستعرض حدائق القصر والمنزل، مصورة ذلك التنوع الحيواني الجميل، لكل حيوان نادر ومهدد بالانقراض. كانت للرئيس سياستان تسيران بخطين متوازيين، واحدة علنية شفافة يحرص على إعلانها في مناسبة وبدونها والأخرى سرية جعل وقائعها من أسرار الدولة التي لا يجوز تحت أي ظرف الإعلان عنها. الشفافية للخارج والسرية للداخل.
لذلك ركزت أكثر صحف الجمهورية فيما بعد، على ذلك الخبر الذي يقول: أن السيد الرئيس وبعد أن استقبل (أبا المدد ذا الوشم)، رابتاً على ردفه الموشوم، سمعه المقربون وكأنه يحدث نفسه قائلاً: اجلبوا له أربعة أتن خرجن تواً من مرحلة الجحوشية.. هذا ما تناقلته الصحف المحلية، مؤكدة أن الأمر منسجم مع روح الرئيس السمحه الرحيمة الرؤوف.. أما المقطع الثاني من ذلك الكلام المهموس

والـذي بـدأه بـ– ضـحكته الشـهيرة، الضـحكة التـي لا تـدري أهـي سخرية وشماتة من أعدائه أم هي إعجاب بنفسه، والذي لم تنقله الصحافة، قال: دعوه ينفض عنه وعثاء النضال..!! تنتظره أيام صعبة ليس لها إلا هو..!! بالطبع أنا سمعت المقطعين ولم أفسرهما صحفياً، لكني حدست أن غرور الرئيس سيشكل خطراً على نفسه هو قبل غيره.

وهذا ما حصل لاحقاً، إذ أثبتت الأحداث صحة حدسي؛ أقصد انهيار الرئيس وجمهوريته. الانهيار الذي ما زال المحللون السياسيون من غير الحمير، واقفين إزاءه بذهول وحيرة وضرب أخماس على أسداس، لسرعة وسهولة حدوثه. وأعتقد أنهم محقون لسبب واحد لا غير، كونه الرئيس الوحيد الذي اقتحمت صوره أسوار ثماني عشر حدوداً، بسهولة غير متعارف عليها، بل كانت عنواناً لمسيرات بشرية مليونية. والمحللون في هذه الأصقاع تعودوا؛ أن قوة الرئيس من قوة صوره. الصورة القادرة على قيادة مظاهرات خارج الحدود هي صورة لا تُقهر.

هذا اللغو بالطبع كله عائد للمحللين السياسيين من الفصائل البشرية، لكن لو سألوا أي حمار، لقال لهم: أن السبب هو حيونة العمل السياسي وعلى الجبهتين، الحكومية والمعارضة. إذ دخول الحمير على خارطة السياسة، قد أربك دول وحكومات وشعوب كثيرة خارج تلك الحدود، لأن كل المدارس السايكولوجية والسياسية

والتاريخية والفلسفية، اهتمت بدراسة السياسيين البشر وردود أفعالهم المحتملة، ولم تتطرق إلى الحمير.

حدث بعد الانهيار الكبير، أن فرهدني أحدهم، بصفتي من موجودات قصور الرئاسة. كان المسكين يظن في بادئ الأمر أنه عثر على لقية ثمينة بوشمي المعقوف على ردفي الأيسر، لكنه وبعد أن اصطدم بجماعة كانت تسوس عدداً من الخيول الأصيلة، عاد إلى طويته المشككة؛ ماذا بوسعه أن يفعل بحمار عجوز أكل عليه الدهر وشرب..!!؟ كان مفرهدي الخيول يضحكون ضحكاً يشبه البكاء. ضحك يخرجونه من دواخلهم على شكل نوبات تدمع عيونهم.. ما أن تتقابل الوجوه وتحدق العيون بالعيون حتى ينفجرون من جديد بالضحك.. لم يتبادلوا فيما بينهم أي كلام مفهوم، باستثناء ذلك الضحك. فهم صاحبي الأمر أنه سخرية منه ومن حماره. الأمر الذي دعاه إلى نزع لجامي وإطلاقي، قائلاً: أذهب يا أسير فأنت من الطلقاء..!! حينها تذكرت (أبي عبدو) الطيب، حين أطلقني للمرة الأولى؛ أنه كذلك قال لي ما قاله هذا الرجل، لكن بدون هذه الـ(أسير)..!!

يا ليته لم يطلقني..!! كنت في عالم من العز والرخاء لم أحلم به طيلة حياتي الحمارية، لم يكن ينقصني شيء، أمامي براري فسيحة كلها تعود لذلك القصر المسمى بقصر السلام، وعندي بدل الزريبة أربع في كل واحدة أتان من تلك التي يسيل لها لعاب حتى كهول الحمير. حتى أني حسبت الأمر نوعاً من تعويض سيدوم، كنت

استحقه في أواخر أيامي. لكن ماذا بوسع حمار أن يفعل في ظل عالم منفلت، كل شيء فيه قد تفكك وانفلت من مكانه، الناس والشوارع والأسواق والقصور، كل شيء ظل يسبح في فضاء غير فضاءه المعتاد.. أنه عالم فقد عقله ونسقه، لعل الأمر يشبه دوران أشياء ثقيلة لم تكن تحلم يوماً بالطيران وهي في عاصفة من الريح الهوجاء تدوم بها في فضاء ترابي، عندها سيكون من حق تلك الأشياء الاعتقاد أنها صارت تطير.. أخذ البشر يتوزعون الشوارع والأزقة والدروب يفككون كل شيء يصادفهم ويضحكون.. شخصياً لم افهم لماذا هذا التفكيك والضحك معاً. كأن نوبة من سعار الضحك استغرقت الجميع.. لقد عاقبوا صور الرئيس بما طالته أياديهم، وسحلوا جداریاته. استغرقت نوبة سعار الضحك والتفكيك زمناً طويلاً، قبل أن تهدأ ويعود البشر إلى طويتهم القديمة إياها، الطوية الفوتوغرافية.

لقد ظهرت بعد ذلك الانهيار المدوي، آلاف وملايين الصور من خلف الكواليس، ظهرت كلها مرة واحدة، لتغطي كل فراغات التفكيك الذي حصل. كل الصور كانت لرؤساء محتملين. وبدأت حمية التنافس الفوتوغرافي من جديد، إنما هذه المرة بعلانية وشفافية بلا خوف ولا وجل من أجهزة شرطة الفوتوغراف القديمة. كانت تعددية فوتوغرافية غير منضبطة، هائجة، ولا من بصيص يهديها إلى سواء السراط. كان البعض يبدل الصور على جدران بيته من الداخل والخارج مرتين أو ثلاث في اليوم الواحد. ما أن تستهويه صورة

أحدهم ويقر رأيه على وضعه في صدر الغرفة، حتى يجد أمامه صورة بديلة أنظف وأرتب وأجمل. هكذا، حتى صار البعض يحن إلى أيام زمان، حين كانت صورة واحدة قادرة على ضبط بلد وليس مجرد بيت صغير. كثيراً ما حدثت شروخات وانشقاقات في البيوت بسبب الصور، تجد في البيت الواحد؛ جداراً لصور فلان والجدار الآخر لصور فلان الآخر خصمه اللدود. صورتان متقابلتان كأنهما في حوار ساخن حول أيهما أجدر بالحلول محل الصورة الساقطة.

سأكتفي بهذا القدر. كل شيء أصبح معروفاً. لم تعودوا بعد الآن بحاجة إلى حمار يشرح لكم صدوركم ويعرفكم على أحوالكم. لكن يبقى لي رجاء أظنه مهماً، تجيبوني عليه واعتبروا الأمر تعويضاً لي عن كل ما بحت به لكم..!! الرجاء هو أن تغيروا عنوان جماعتكم إلى أي عنوان يكون بعيداً عن شؤون الحمير. لكم شؤونكم ولنا شؤوننا. وبصفتي الآن من كبار الحمير؛ سأعمل على مشروع لأول مرة يدعو إلى التمييز الصريح.. نعم التمييز.. من الآن سأنادي وأسعى إلى فرض التمييز.. ليس التمييز بين الحمار والحمار.. بل التمييز بين الإنسان والحمار.. وإذا بحثتم عن عنوان مناسب ودال على كتابكم هذا، اقترح أن يكون: جني الثمار في الفصل بين الإنسان والحمار!!

والآن أغربوا عن وجهي ودعوني أعود إلى سكينتي..!!!!!